المجنون

مجموعة قصص

بقلم

جى دى موباسان

ترجمة

محمد عبد المنعم جلال

دار الهلال

المؤلف

ولد جى دى موباســـان فى مدينة روان بمقـــاطعة نورماندى فى عام ١٨٥٠ .

وكانت أمه كثيرة التنقل ، فبعد مولده بقليل انتقلت الى مكان آخر من نورماندى ، وعندما أتم السادسة من عمره انتقلت الأسرة مرة أخرى الى القصر الأبيض بقرية اتريتا ، وكانت الدار التى أقامت فيها هناك أول دار وعتها ذاكرته ، وقد أشار اليها فى كثير من قصصه .

وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره لعبت الصدفة دورا كان له أكبر الأثر فى حياته ، فقد رأى أبويه ، خلسة ، وهما يتخاصمان فى أحد المتنزهات ، فقد طلب الزوج من زوجته أن توقع على بعض المستندات ورفضت الزوجة قائلة انها لن توقع فان النقود انما هى نقــود جى وسوف تحتفظ له بهـــا ولا تحب أن تراه يبددها على الخادمات والنساء الأخريات بنفس الطريقة التى بدد بها ثروته .

وغضب الزوج وراح يضربهـــا ضربا مبرحا ,وقد جن جنونه . وكان هــذا سببا فى انفصال الزوجين وعاش كل منهما على حدة ، واحتضنت الأم ابنها وشب فى رعايتها .

وكان لهذا الحادث أثره فى نفس جى فعزف عن الزواج .

وما أن حصل على البكالوريا وبدأ يتلقى دروسه فى القـــانون حتى نشبت الحـــرب بين فرنسا وبروسيا فانخرط فى سلك الجيش . ولمـــا وضعت الحرب أوزارها لم يستطع معاودة دراسة

القانون لسوء أحوال الأسرة المالية ، واضطر الى العمل كاتبا فى وزارة الحربية بمرتب ضئيل .

وأتاحت له الحرب فرصة نادرة فدرس الحياة الانسانية التى تكشفها المحن وتبديها على حقيقتها واختزن فى ضميره ذكريات عديدة كانت المادة الخام التى صاغ منها قصصه وعلى الخصوص قصته الرائعة « كتلة الشحم » .

وتفتحت عيونه على زملائه وراح يدرس أحوالهم ونفوسهم ، ويدخر فى ذاكرته حقائق تردد صداها فى أعماقه الأدبية .

وبدأ بكتابة الشعر وتعرف بجوستاف فلوبير وعرض عليه أشعاره فلقى منه كل تشجيع وقدمه لمدام جوليبت آدم رئيسة تحرير مجلة « لانوفل ريفى » وأعجبت هى الأخرى بأشعاره ونشرت له الكثير منها .

كما تعرف على زولا وبدأ بكتابة الأقاصيص ، وكانت « والد سيمون » أول قصة كتبها وفتحت له أبواب الشهرة ، ولم يلبث أن تلاها بأقاصيص أخرى حتى بلغ مجموعها نحو ثلاثمائة قصة ظهرت فى خمسة وعشرين كتابا ، وهى تعد من أروع انتاجه كما تعد نموذجا لم يصل الى مستواه قاص غيره ، ومن أشهرها العقد والميراث والآنسة فيفى ومنزل السيدة تيليه ، وقد تلقى من تورجنيف خطابا يهنئه فيه على هذه القصة بالذات ويعده بترجمتها الى اللغة الروسية لوثوقه من أنها سوف تهز مشاعر الروس كما وعد بترجمة العديد من قصصه الأخرى .

وكتب الى جانب هذه الأقاصيص ست روايات طويلة منها حياة امرأة وبيير وجان ومونت أوريول .

وكان شديد اللهفة على معرفة كل شىء عن الجنون ليجعل منه مادة لقصته المعروفة « الهورلا » التى جاءت نبوءة أمينة لمستقبله المحزن . وقد ظهرت عليه أعراض الجنون بعد عام من كتابته هذه القصة ، ويعتقد بعض الكتاب أن هذه القصة بالذات ما هى الا احدى أعراض هذا المرض وانه كشف فيها عن ادراكه لمصيره المفجع .

وكان شغوفا بمعاشرة النساء الى حد الجنون وأصيب بمرض الزهرى فى سنة ١٨٧٥ ، وكان لهذا المرض أسوأ الأثر فى حياته ، فقد انتهى به الأمر الى اصابته بلوثة من الجنون ونقل الى مستشفى المجاذيب فى قميص المجانين ، وراحت حيـاته تزداد سوءا حتى فاضت روحه فى ٩ يولية سنة ١٨٩٧ ولما يتجاوز الثالثة والأربعين من عمره .

وقد شغل موباسان مكانة كبيرة فى قلوب الفرنسيين ، وأقيم له أثر خالد فى مدينة روان سنة ١٩٠٠ .

المجـــنون



المجنون

ـ ١ ـ

٨ مايو

ما أجمله يوم ! قضيت طوال الصباح مستلقيا فوق العشب ، أمام بيتي ، تحت شـجرة الدلب الضخمة التى تقع أمامه وتضفى ظلها عليه .

انني أحب هذه البلدة ، وأحب العيش فيهـا ، ففيها جـذوري تلك الجذور العميقة التى تربط الرجل بالارض التى ولد فيهـا أجداده وماتوا ، والتى تشده اليها بـكل أفكاره وتقاليده وطعامه وبـكل العبارات المحلية ولهجات الفلاحين وشذى الارض ، وعبير القرى ، وبالهواء نفسه .

أحب بيتى الذى نشأت وشببت فيه ، وأرى من نوافذى نهر السين ينساب خلف الطريق ، بطول حديقتى وبجوار بيتى تقريبا .. نهر السين الـكبير العريض الذى يمتد من مدينة روان حتى الهافر والذى تزخر صفحته بالسفن .

وهناك ، على اليسار تقع مدينة روان ، تلك المدينة الـكبيرة بأسقفها الزرقاء وأبراجهـا القوطية العديدة ونواقيسها التى يرتفع رنينها فى الايام الزرقاء الجميلة ، ذلك الرنين الذى يملأ المدينة بايقاعه العذب القوى والرقيق حسب هجوعها ويقظتها .

ما أجمله يوم !

فى نحو الساعة العـاشرة مرت ببيتى قافلة طـويلة من السفن

والقاطرات وهى تنفث سحبا كثيفة من الدخان ، ومرت بعدها باخرتان انجليزيتان يرفرف علمهما الاحمر فى السماء ، وخلفهما سفينة بيضاء برازيلية لا أدرى لماذا حييتها ، ولا ريب اننى فعلت ذلك لأنه طاب لى أن أراها ٠

١٢ مايو

أشعر أننى مصاب بحمى خفيفة منذ أيام ، وأحس بألم أو بوجه أصح أشعر بالحزن والأسى .

من أين تأتى هذه الاحساسات الغامضة التى تبدل فرحنا الى كرب وضيق ؟ .. لكأن الهواء ، الهواء الخفى زاخر بقوى غريبة نعانى من تأثيرها ، فاننى أستيقظ وكلى مرح ، وبى رغبة فى الغناء ، فلماذا ٠٠٠ وأهبط بطول الشاطىء ، وفجأة ، بعد نزهة قصيرة أعود الى البيت مكروبا كما لو أن مصيبة تنتظرنى فيه ... لماذا ؟ .. أهى رعدة برد مست بشرتى وضعضعت حواسى وكدرت روحى ؟ .. أو هو منظر السحب ، أو لون النهار ولون الاشياء المختلفة التى تمر أمام عينى وتعكر أفكارى ؟ من يدرى ؟ ان كل ما يحيط بنا ، وكل ما نبصره من غير أن نراه وكل ما نحتك به دون أن نعرفه وكل ما نلمسه دون أن نحسه ... كل ما نلتقى به دون ان نميزه له علينا وعلى أعصابنا وأفكارنا وقلوبنا بالذات تأثير سريع مذهل لا تفسير له .

ان سر الغيب لعميق حقا ٠٠٠ لا يمكننا سبره بمشاعرنا البسيطة ، ولا بأعيننا التى لا تعرف كيف تبصر التافه البسيط ولا الجلل العظيم ولا القريب الدانى ولا البعيد القاصى ، ولا سكان نجمه أو سكان قطرة ماء ، ولا بآذاننا التى تخدعنا لانها تنقل الينا ذبذبات الهواء بأصوات صماء ، وانهن لحوريات اللاتى ينجزن هذه المعجزة اذ يغيرن هذه الذبذبات الى موسيقى فكأن اضطراب الطبيعة انما هو شدو وغناء ، ولا بحاسة الشم وهى أضعف عندنا مما هى عليه عند الكلب ولا بحاسة الذوق التى تكاد لا تميز عمر النبيذ .

آه ، لو ان لدينا أجهزة أخرى تنجز معجزات أخرى لصالحنا فما أكثر الاشياء التى يمكن أن نكتشفها حولنا .

١٦ مايو

لا ريب اننى مريض ، ومع ذلك فقد كنت فى أتم صحة فى الشهر الماضى . اننى مصاب بالحمى ، وهى حمى فظيعة أو بالأحرى بانفعال محموم تتألم منه روحى كما يتألم جسدى ، وأشعر بهذا الاحساس الفظيع بأن خطرا يهددنى باستمرار وان مصيبة ستدهمنى أو أن الموت يدنو منى ، وهو احساس لا شك أنه الاصابة بشر لا يزال مجهولا ينمو فى الدم وفى الجسد .

١٨ مايو

عدت الآن من استشارة طبيبى لأننى لم أستطع النوم ، وقد وجد نبضى سريعا وعينى متسعة وأعصابى متوترة ، ولكن الاعراض لا تدعو الى القلق ، ونصحنى بأن أداوم على الاستحمام بالماء البارد وعلى تناول برومور البوتاسيوم .

٢٥ مايو

حالتى كما هى لم تتغير ، وهى حالة غريبة حقا ، فكلما اقترب المساء يعترينى قلق غريب لا كنة له ، كأن الليل يخفى لى فى أهدابه خطرا ماحقا ، فأتناول عشائى على عجل ثم أحاول ان أقرأ . ولكننى لا أفهم الكلمات وأكاد لا أميز الحروف . وعندئذ أذرع غرفتى جيئة وذهابا وقد جثم على خوف مبهم لا فرار منه .. خوف من النوم وخوف من الفراش .

وفى نحو الساعة الثانية أصعد الى غرفتى ، وما أكاد أدخل حتى

أغلق الباب خلفى بالمفتاح والمزلاج ، فاننى أشعر بالخوف ... مم ؟ لم أكن أخشى شيئا قبل الآن . وأفتح الأدراج ، وأنظر تحت الفراش ، وأستمع .. أستمع الى أى شىء .. وانه لمن الغريب . أن مجرد توعك ، أو ربما مجرد اختلال فى الدورة أو تهيج عصب أو قنيل من عسر الهضم أو اضطراب بسيط فى الآلة الحية الرقيقة للانسان ، أن يحيل أكثر الرجال مرحا الى رجل حزين مهموم وأشدهم شجاعة الى جبان رعديد . ثم أستلقى فوق الفراش وأنتظر النوم كما ينتظر المحكوم عليه بالاعدام الجلاد ... انتظره فى رعب من قدومه ، ويخفق قلبى وترتعش ساقى ، ويرتجف بدنى تحت الأغطية الدافئة حتى اللحظة التى أقع فيها فى النوم كما يقع الغريق فى هوة من الماء الراكد . اننى لا أشعر به حين يغلبنى كسابق العهد به ... هذا النوم الغادر الذى يختفى بالقرب منى ويترقبنى ويهجم على ويطبق عينى ويضنيني .

وأنام نوما طويلا .. ساعتان أو ثلاثا .. ثم حلم .. كلا ، بل هو كابوس يطبق على . أشعر تماما بأننى مستلق على الفراش واننى نائم . أشعر بذلك وأراه .. وأشعر كذلك بأن شخصا يقترب منى وينظر الى ويتحسسنى ويصعد فوق فراشى ويجثم فوق صدرى ويأخذ عنقى بين يديه ويضغط ... ويظل يضغط بكل قوته لكى يخنقنى .

أما أنا فأقاوم ، رغم ذلك العجز الفظيع الذى يشل حركتنا فى الأحلام ، وأريد أن أصرخ ولكننى لا أستطيع . أريد أن أتحرك ولا أستطيع . وأبذل جهدا شديدا وأنا أحاول لاهثا لكى أستدير وأدفع بعيدا عنى ذلك الكائن الذى يسحقنى ويطبق على أنفاسى ... ولا أستطيع .

واستيقظ فجأة ، مذعورا ، والعرق يتفصد منى ، وأضىء شمعة فاذا بى وحدى .

وبعد هذه الأزمة التى تتجدد كل ليلة أروح اخيرا فى سبات عميق حتى الفجر .

٢ يونية

ازدادت حالتى سوءا ... ماذا بى اذن ؟ .. ان البروموور لا يفيد ولم يفدنى الاستحمام . ولكى أرهق جسدى أقوم بجولة فى غابة روما . وقد خطر لى فى البداية أن الهواء النقى البليل ، وشذى الاعشاب قد يصبان فى عروقى دما جـــديدا ، وفى قلبى طاقة جديدة . وسرت فى طريق طويل يستخدم للصيد ثم انعطفت الى لابوى عبر ممر ضيق بين صفين من الاشجار الباسقة تشابـكت فروعها العليا حتى بدت كسقف أخضر كثيف يكاد يحجب ما بينى وبين السماء .

وسرت فى بدنى القشعريرة فجأة ... ولم تكن قشعريرة قلق خفى .

وأسرعت الخطى وقد راعنى أن اكون وحدى فى هذه الغابة ، هلوعا دون ما سبب ، فى هذه الوحدة التامة . وفجأة ، خيل لى ان هناك من يتبعنى ويتعقبنى ويمشى بجوارى تقريبا حتى ليكاد أن يلمسنى .

واستدرت فجأة فاذا بى وحدى . ولم أر خلفى غير الطريق الطويل الممتد أمامى وليس به أحد على الاطلاق ، وكان يمتد أيضا فى الناحية الاخرى على مرمى البصر ، مخيفا .

وأطبقت عينى . لماذا ؟ ورحت أستدير على عقبى سريعا كالنحلة . وأوشكت أن أقع . وفتحت عينى . كانت الاشجار حولى ترقص والارض تطفو . واضطررت أن أجلس . ثم .. آه . لم أعد ادرى من أين أتيت . وأنه لامر غريب .. غريب جدا . لم أعد أعرف أبدا ... وانطلقت فى الناحية التى على يمينى ، وعدت الى الطريق الذى أتيت فيه الى وسط الغابة .

٣ يونية

كانت الليلة فظيعة . سأتغيب بضعة أسابيع ، فلا ريب ان رحلة قصيرة قد تبرئنى مما أنا فيه .

٢ يولية

عدت اليوم وقد شفيت . ثم انني قمت برحلة ممتعة . وزرت جبل سان ميشيل ، ولم أكن قد زرته من قبل .

ويا له من منظر جميل لمن يصل مثلي الى افرانسن عند غروب الشمس ! فالمدينة تقوم فوق تل . ومضيت الى الحديقة العامة في طرف المدينة ، وهناك أطلقت صيحة اعجاب ، فقد امتد أمامي ، الى مرمى البصر خليج كبير ، بين شاطئين متباعدين يختفيان بعيدا في موجة كبيرة من الضباب ، وفي وسط هـذا الخليج الاصفر الفسيح ، تحت سماء ذهبية ورمال لامعة ، كانت الشمس تميل الى الغروب ، وعلى الافق الذي يصطبغ بحمرة الشمس الغاربة يبدو منظر تلك الصخرة الخيالية التي يقوم فوقها تمثال عجيب .

كنت أمضي نحو هذا التمثال عند الفجر ، وكان البحر منخفضا كمساء أمس ، وكنت أرى الدير العجيب يبدو أمامي شيئا فشيئا كلما اقتربت . وبعد ساعات طويلة من السير بلغت الصخرة الكبيرة التي تقوم المدينة الصغيرة فوقها والتي يشرف الدير عليها . وبعد ان صعدت الشارع الضيق المنحدر دخلت أغرب مبنى غوطي بناه الانسان لعبادة الرب على الارض . وبدا فسيحا كالمدينة ، به أبهاء منخفضة تعلوها قبب عجيبة ودهاليز عالية تقوم فـوق عواميد واهية ... دخلت هذه الجوهرة الكبيرة من الجرانيت والخفيفة كالدانتيللا ، تكسوها الابراج والقبيبات الصغيرة التي يبلغها المرء عبر سلالم حلزونية ، والتي ترتفع رءوسها الغريبة في سماء النهار وسماء الليل السوداء فتبدو من بعيد كشياطين أو كحيوانات خرافية أو زهور هائلة تربط بينها قناطر مزخرفة ومنقوشة .

وعندما بلغت القمة قلت للراهب الذي كان يرافقني .

ــ لا شك ان المعيشة تطيب لك هنا يا أبي ؟

أجاب : ان الرياح شديدة يا سيدي .

ورحنا نتحدث ونحن ننظر الى المد وهو يرتفع وينساب فوق الرمال ويغطيها بدرع من الصلب .

وروى لى الراهب قصصا .. كل القصص القديمة المتعلقة بهذا المكان وكذلك الاساطير .. كل الاساطير .

واثارتنى احداها كثيرا ، فان أهالى البلد ، وأهالى الجبل على وجه الخصوص يزعمون أنهم يسمعون أثنـاء الليل أحاديث خفية وسط الرمال ، وصوت عنزتين تثغوان ، احداهما بصوت مرتفع والاخرى بصوت ضعيف ، والبسطاء يؤكدون أنها أصـوات طيـور البحر التى تشبه تارة الثغاء وتارة أخرى أنين البشر . ولكن صيادى آخر الليل يقسمون أنهم التقوا براع عجوز ، يخفى رأسه فى معطفه دائمـا ، يجول فى الكثبان بين مد البحـر وجزره حول المدينة الصغيرة التى تقع بعيدا عن العالم ويسوق أمامه تيسا له وجه رجل وعنزة لها وجه امرأة ، وكل منهما له شعر أبيض طويل ، ويتكلمان بدون انقطاع ويتشاجران بلغة مجهولة ثم يكفان عن الصياح فجأة لـكى يثوغا بكل قوتهما .

قلت للراهب : وهل تصدق ذلك ؟

تمتم : لا ادرى .

استطردت : لو انه وجدت على الارض كائنات اخرى غيرنا لم نعرفهم منذ وقت طويل فكيف لم ترهم أنت ولم أرهم أنا ؟

أجاب : وهل نرى واحدا على الالف مما فوق الارض ؟ .. اليك الريح مثلا ، وهى أكبر قوة فى الطبيعة ، تقلب الرجال وتهدم العمارات وتقتلع الاشجار وتعصف بالبحار وتدفع بالبواخر الكبيرة فترتطم بالصخور ... الريح التى تقتل والتى تصفر وتئن وتهدر .. هل رأيتها ؟ وهل تستطيع أن تراها ؟ .. ومع ذلك فهى موجودة .

سكت ازاء هذا التعليل البسيط ... هذا الرجل اما أن يكون حكيما او غبيا . لم يكن فى مقدورى ان أؤكد ذلك بالذات ولكننى سكت فان ما ذكره لى سبق ان خطر ببالى كثيرا .

٣ يولية

نمت نوما مضطربا . لا ريب انه يوجد هنا تأثير محموم ، فان سائقى يعانى من نفس المرض الذى أعانى أنا منه فحين عدت بالامس لاحظت شحوب وجهه العجيب فسألته :

ــ ماذا بك ياجان ؟

ــ لم أعد أستطيع ان أذوق الراحة يا سيدى ، فان ليالى تأكل أيامى ، فمنذ ان رحل سيدى وأنا أحس كأن سحرا خفيا قد أصابنى .

ومع ذلك فان الخدم الآخرين فى أتم صحة . ولكننى أخشى أن يعاودنى احساسى القديم .

٤ يولية

عاودتنى احساساتى ، ولا ريب فى ذلك . وعادت كوابيسى القديمة ، فقد أحسست الليلة بشخص جاثم فوق صدرى وفمه فوق فمى ينهل حياتى من بين شفتى .. نعم ، كان يعبها عبا من حلقى كمايفعل مصاصى الدماء ، ثم نهض بعد أن شبع . وصحوت من نومى مرهقا ومتعبا ومحطما بحيث لم أستطع أن أتحرك . اذا استمر هذا بضعة أيام أخرى فسوف أرحل من جديد دون شك .

٥ يولية

أترانى جننت ؟ ان ما حدث الليلة الماضية لمن الغرابة بحيث أن رأسى تدور عندما أفكر فيه .

وكما أفعل الآن كل ليلة ، أغلقت بابى بالمفتاح ثم أحسست بالظمأ فشربت نصف كوب من الماء ولاحظت صدفة ان الدورق مملوء بالماء حتى عنقه .

ونمت بعد ذلك ، وسرعان ما وقعت فريسة لهذه الاحلام الفظيعة التى أصحو منها بعد ساعتين تقريبا وأنا أرتعد رعدة شديدة .

تصور رجلا سادرا فى نومه يقتلونه ، يستيقظ وفى صدره خنجر ويحتضر والدم يغطيه ولا يستطيع أن يتنفس ، ويشرف على الموت وهو لا يفهم .. هذه كانت حالتى .

ولما استعدت وعيى أخيرا أحسست بالظمأ من جديد فأضأت شمعة ومضيت الى المنضدة التى وضعت الدورق فوقها ورفعت الدورق لأصب الماء منه فى الكوب ولكن لم تسقط منه قطرة واحدة . كان الدورق فارغا . ولم أفهم شيئا فى البداية ، ولكننى احسست فجأة بانفعال بالغ بحيث اضطررت الى الجلوس ، أو بالحرى بحيث تهالكت فوق مقعد ، ثم نهضت دفعة واحدة لكى أنظر حولى ، ثم عدت وجلست والدنيا تدور بى ، وقد تملكنى الخوف أمام الدورق الفارغ . ورحت أتأمله بعينين ثابتتين محاولا أن أخمن . وارتجفت يداى . هناك اذن من شرب هذا الماء ، ولكن من يكون ؟ أهو أنا ؟ .. لا ريب أنه أنا ، فلا يمكن أن يكون شربه أحد غيرى . اذن فأنا مصاب بداء السير أثناء النوم . كنت أحيا اذن هذه الحياة المزدوجة الغامضة التى تجعل المرء يشك فى ان فيه كائنين أو أن فيه كائنا آخر غريبا وخفيا يعيش لحظات عندما تصاب روحنا بالخدر فيصبح جسدنا عبدا لهذا الكائن الآخر ، يطيعه كما يطيع نفسه ، بل أكثر مما يطيع نفسه .

آه . من يستطيع أن يفهم اضطرابى الشديد ؟ .. من يفهم انفعال رجل سليم عاقل متيقظ ينظر حوله مذعورا خلال زجاج الدورق الى قليل من الماء الذى اختفى أثناء نومه . وبقيت هكذا الى أن طلع النهار دون أن أجرؤ على النظر الى فراشى .

٦ يولية

اننى فى طريقى الى الجنون . هناك من شرب كل دورقى الليلة ، أو بالحرى شربته أنا

ولكن هل أنا الذى شربته ! .. واذا لم أكن أنا فمن يكــون ؟ .. أوه .. رباه ! اننى سأجن .. من ينقذنى ؟

١٠ يولية

قمت اليوم بتجارب غريبة .

لا مراء فى أننى مجنون . ومع ذلك ...

فى السادس من يولية ، قبل أن أنام ، وضعت فوق المـائدة نبيذا ولبنا وماء وخبزا وبعض الفراولة .

وقد شرب أحدهم ، أو لعله أنا الذى شرب ... كل الماء وقليلا من اللبن . أما النبيذ أو الفراولة فلم يمسهما أحد .

وفى السابع من يوليه قمت بنفس التجربة من جديد ، وكانت النتيجة واحدة .

وفى الثامن من يوليه لم أضع ماء ولا لبنا فلم يمس أى شىء آخر .

وأخيرا ، فى التاسع من يوليه وضعت فوق مائدتى المـاء واللبن فحسب وحرصت على أن أغلف الـدورق بقماش أبيض وربطت السدادة بقطعة من الدوبارة ثم دعكت شفتى ولحيتى ويـدى بهباء الرصاص وأويت الى فراشى .

وغلبنى النوم الخفى وأعقبه اليقظة المريعـــة ، ولم أكن قد تحركت ، ولم يلوث هباء الرصاص الفطـاء أو أى شىء آخر . وأسرعت الى المائدة . كان القماش الذى لففت به الدورق كما هو والدبارة لم تمس . وفككتها وأنا أرتعد خوفا ... اختفى كل الماء وكل اللبن . شربهما شخص ما .. رباه !

سأنتقل الى باريس بعد قليل .

١٢ يولية

باريس ! .. لا شك اننى فقدت صوابى فى الايام الماضية واننى

كنت العوبة خيالى الثائر ما لم أكن مصابا حقا بداء السير أثناء النوم أو عانيت من احدى هذه التأثيرات المثبتة والتى لا تفسير لها ويقال انها الايحاءات . وعلى كل فان فزعى يكاد يصل الى حد الخيال ، وكان فى قضاء أربعة وعشرين ساعة فى باريس ما يكفى لـكى يرد الى قواى .

امس ، بعد أن فرغت من مشاغلى وتجولاتى التى أصابت روحى بالخير والانتعاش رايت أن أختتم سهرتى فى المسرح الفرنسى ، وكانوا يعرضون فيه مسرحية لاسكندر ديماس الابن ، وقد استمتعت بمشاهدة المسرحية بحيث خيل لى اننى برئت مما بى . والواقع ان الوحدة شىء خطير للنفس الذكية التى لا تنفك عن العمـــل والتفكير ، ولابد للمرء من أناس يخالطونه ويتبادلون معه الحديث فانه اذا ما بقى وحيدا مدة طويلة فانه يملأ فراغ فكره بالاشباح .

عدت الى الفندق عن طريق البوليفار وانا فى شدة المرح . ومع احتكاكى بالجمهور كنت أفكر فى شىء من السخرية فى مخاوفى وافتراضاتى فى الاسبوع الاخير الأننى اعتقدت ، نعم ، اعتقدت ان كائنا خفيا غير منظور يعيش تحت سقف بيتى . آه . ما أضعف عقولنا وما أسرع ما تتأثر ويتملكها الخـــوف بمجرد أن يقع لنا شىء تافه .

وبدلا من أن أختتم قولى بهذه العبارة « اننا لا نفهم لان السبب يغيب عنا » نتصور حالا ان هناك أسرارا مخيفة وقوى خارقة .

١٤ يولية

اليوم عيد الجمهورية . تجولت فى الشـــوارع .. الصواريخ والاعلام تطربنى كما لو كنت طفلا . ومع ذلك فان من الغباء حقا أن يمرح الانسان ويطـرب فى عيد حـدده قـرار من الحكـــومة . ان الجمهور قطيع غبى ، تراه تارة صبورا فى غباء وأخرى متمردا شديد التمرد . يقال له امرح فيمرح ، وامض لمحاربة جارك فيمضى

لقتاله . ويقال له اعط صوتك للامبراطور فيعطيه صوته ثم يقال له انتخب الجمهورية فينتخبها .

وأولئك الذين يقودونه أغبياء هم الآخرون ، ولـكنهم بدلا من ان يطيعوا الاوامر يطيعون المبادئ ، وهى مبادىء لا يمكن الا أن تكون حمقاء عقيمة وكاذبة لأنها مبادىء أو آراء المعروف عنها أنها أكيدة وثابتة فى هذه الدنيا حيث لا شىء مؤكد بما ان الضوء وهم وبما ان الضجيج وهم .

١٦ يولية

رأيت أمس أشياء أزعجتنى كثيرا ، فقد كنت أتناول العشاء فى بيت ابنة عمى مدام سابليه ، وزوجها مقدم يتولى قيادة الفرقة السادسة والسبعين بليموج . وشاركتنا العشاء سيدتان فى مقتبل العمر ، احداهما زوجة الدكتور باران ، طبيب الامراض العصبية ويهتم بالظواهر الخارقة للطبيعة التى يدعونها الآن التنويم المغناطيسى والايحاء .

وقد روى لنا الاحاديث المسهبة عن النتائج العجيبة التى انتهى اليها بعض العلماء الانجليز واطباء مدرسة نانسى .

والحقائق التى ذكرها لنا كانت من الغرابة بحيث أبديت عدم تصديقى على الفور .

فقد قال : اننا على وشك اكتشاف واحد من أهم أسرار الطبيعة ، وأعنى واحدا من أهم الاسرار على هذه الارض ، لان هناك أسرارا أخرى هامة هناك فى النجوم ، فمنذ أن فكر الرجل ومنذ أن عرف كيف يكتب ويقرأ خواطره وقد لمس سرا مستلغقا على مشاعره الفظة والناقصة ويحاول أن يكمل ، مستعملا ذكاءه ما عجز عنه عقله حتى اليوم . وعندما كان هذا الذكاء لا يزال فى مرحلته الفطرية اتخذ الحاح الظواهر الخفية أشكالا وصورا مريعة حقا ، ومن هنا نشأت الاعتقادات العامة فى الظواهر الخارقة للطبيعة واساطير الارواح الشاردة والحوريات والجن والاشباح والعفاريت .

« ولكن منذ نحو قرن أو يزيد قليلا يبدو انهم استشعروا شيئا جديدا ، فقد هدانا مسمر ومعه آخرون الى طريق لم نكن نتوقعه . ووصلنا حقا منذ أربع أو خمس سنوات على وجه الخصوص الى نتائج مذهلة » .

وابتسمت ابنة عمى هى الاخرى مبدية دهشتها فقال لهـا الدكتور باران : أتريدين أن أحاول تنويمك مغنطيسيا يا سيدتى ؟

ـ نعم . اننى أريد ذلك .

وجلست فى مقعد وبدأ يحدق فيها تحديقا شديدا . أما أنا فقد احسست بشىء من الاضــطراب وراح قلبى يخفق ، وجف حلقى ورأيت عينا مدام سابليه تتثاقلان وفمهـا يتقلص وصدرها يرتفع وينخفض وهى تلهث .

وبعد عشر دقائق نامت . وقال لى الطبيب :

ـ اجلس خلفها .

جلست خلفها ووضع الدكتور بين يديها بطاقة وهو يقول لهـا :

ـ هذه مرآة ، فماذا ترين فيها ؟

أجابت : أرى ابن عمى .

ـ وماذا يفعل ؟

ـ انه يفتل شاربه .

ـ وماذا يفعل الآن بالذات ؟

ـ يخرج صورة فوتوغرافية من جيبه .

ـ صورة من ؟

ـ صورته هو .

وكان هذا حقا . وقد جاءتنى هذه الصورة بالفندق مساء اليوم بالذات .

ـ وكيف يبدو فى هذه الصورة ؟

ـ واقفا ممسكا قبعته فى يده .

كانت ترى اذن فى هذه البطاقة ، فى هذه الورقة البيضاء ، كما لو كانت ترى فى مرآة .

وصاحت النسوة مذعورات : كفى .. كفى .. كفى .

ولكن الطبيب أمرها قائلا : ستستيقظين فى الساعة الثامنة من صباح الغد وتمضين الى ابن عمك فى الفندق الذى يقيم فيه وتطلبين منه أن يقرضك خمسة آلاف فرنك ، زوجك بحاجة اليها ويريد أن يتسلمها منك عند قدومه .

ثم أيقظها .

وفى طريقى الى الفندق فكرت فى هذه الجلسة الغريبة وانتابتنى الشكوك ، ليس فى حسن نية ابنة عمى ، فقد كنت أعرفها كأختى ، ولكن فى انه ربما تكون هناك خدعة من جانب الدكتور . ألم يكن يخفى فى يده مرآة كان يريها للمرأة النائمة فى نفس الوقت الذى أعطاها فيها البطاقة . ان الدجالين المحترمين لا يتورعون عن القيام بأعمال غريبة حقا .

وعدت الى الفندق وأويت الى فراشى .

ولكن فى الساعة الثامنة والنصف من صباح اليوم أيقظنى وصيفى وهو يقول لى :

ـ أتت مدام سابليه وتريد أن تراك يا سيدى .

وارتديت ثيابى على عجل وأسرعت لاستقبالها .

وجلست بادية الارتباك ، مطرقة الرأس ومن غير ان ترفع نقابها وقالت :

ـ أى ابن عمى العزيز .. أتيتك أقصدك فى خدمة كبيرة .

ـ وما هى يا ابنة العم ؟

ـ يضايقنى كثيرا أن أقول لك ذلك ، ولكن لابد منه ، اننى بحاجة ماسة الى خمسة آلاف فرنك .

ـ ماذا تقولين ؟

ـ نعم . أنا .. أو بالحرى هو زوجى الذى كلفنى ان آتيه بهذا المبلغ .

اصابنى الدهشة الى حد أننى رحت اتمتم ببعض الكلمات وأنا أتساءل أتراها تسخر منى حقا بمساعدة الدكتور باران . أو لا يكون الامر دعابة أعدت من قبل وأجادا القيام بها .

ولكن شكوكى تبددت وأنا انظر اليهـا فى اهتمام ، فقـد كانت ترتجف لفرط قلقها من هذه العملية . وأدركت ان بحلقها غصة تحاول التغلب عليها .

وكنت أعرف أنها على جانب كبير من الثراء فقلت : كيف هذا ؟ الا يحتكم زوجك على خمسة آلاف فرنك ؟ فكرى جيدا . هل أنت واثقة انه كلفك بأن تطلبى منى هذا المبلغ ؟

ترددت بضع لحظات كما لو كانت تبذل جهدا كبيرا لكى تبحث عن كلماتها ثم أجابت :

ـ نعم ، نعم ... انني واثقة من ذلك .

ـ هل كتب اليك بذلك ؟

ترددت مرة أخرى وهى تفكر . وأدركت ما يعتمل فى ذهنها من عذاب ، فهى لم تكن تدرى ، وكل ما كانت تعرفه هو انه يجب أن تقترض منى خمسة آلاف فرنك لزوجها . وجرؤت عندئذ على الكذب، فقالت :

ـ نعم ، انه كتب الى بذلك .

ـ متى ؟ .. انك لم تذكرى لى شيئا أمس .

ـ ذلك ان رسالته جاءتنى صباح اليوم .

ـ هل يمكننى أن أراها ؟

ـ كلا ، كلا ، كلا ، فهى تحتوى على مسائل خاصة جدا ، وقد .. أحرقتها .

ـ معنى هذا ان زوجك استدان ؟

ترددت مرة أخرى ثم قالت : لا أدرى .

وقلت فجأة : ذلك انه ليس معى خمسة آلاف فرنك الآن يا ابنة العم .

أطلقت صيحة ذعر وقالت : أوه .. أوه .. ارجوك أن تعطينى هذا المبلغ .

كانت تتكلم وقد أخذها الحماس ، وضمت يديها فى توسل وتغيرت رنة صوتهـا وبكت وتلعثمت فى فزع ، يسيطر عليهـا الامر الذى تلقته .

ـ أوه .. أوه .. أرجوك . انك لا تعلم كم أتألم . لابد لى من هذا المبلغ .

ورثيت لها وقلت : سأعطيك المبلغ . وأقسم لك .

صاحت : أوه ، أشكرك .. أشكرك .. ما أطيب قلبك !

وعدت أقول : هل تذكرين ما حدث فى بيتك بالامس ؟

ـ نعم .

ـ هل تتذكرين ان الدكتور باران قد نومك ؟

ـ نعم .

ـ حسنا . انه أمرك ان تأتينى صباح اليوم وأن تقترضى منى خمسة آلاف فرنك . وأنت تطيعين هذا الايحاء الآن .

فكرت بضع لحظات ثم قالت : ولكن زوجى هو الذى يطلب هذا المبلغ .

ومرت بنا ساعة وأنا أحاول اقناعها ، ولكننى لم أستطع .

وعندما انصرفت أسرعت الى الدكتور باران ، وكان موشكا على الانصراف . وأصغى الى وهو يبتسم ثم سألنى :

ـ هل صدقتنى الآن ؟

ـ نعم . لابد لى من ذلك .

ـ هلم بنا الى ابنة عمك .

وكانت جالسة تغفو فوق مقعد مستطيل وقد أرهقهـا التعب . وحدثها الطبيب ، وجس نبضها ونظر اليها محدقا ويده مرفوعة نحو عينيها ، ولم تلبث أن أطبقتهما شيئا فشيئا بعد قليل تحت قـوة الطبيب المغنطيسية .

وعندما نامت قال لها : لم يعد زوجك بحاجة الى الخمسة آلاف فرنك ، وسوف تنسين انك طلبت من ابن عمك أن يقرضك اياها ، واذا حدثك عنها فانك لا تعرفين شيئا .

ثم أيقظها . وعندئذ أخرجت محفظتى من جيبى وقلت : اليك المبلغ الذى طلبته منى صباح اليوم يا ابنة العم .

بدت عليها دهشة شديدة بحيث لم أستطع الالحاح . ومع ذلك فقد

حاولت ان انعش ذاكرتها ، ولكنها انكرت بكل قواها وحسبت أننى اداعبها ، وأوشكت أن تغضب فى النهاية .

وانتهى الأمر ، وعدت الى الفندق ولم أستطع ان أتناول عشائى لفرط ما أزعجتنى هذه التجربة .

١٩ يولية

رويت هذه الحادثة لأشخاص كثيرين فأبدوا استهزاءهم بى ولا أدرى ماذا أقول . وان الرجل الحكيم ليقول « ربما » .

٢١ يولية

ذهبت لتناول العشاء فى بوجيفال ، ثم قضيت السهرة فى نادى الضباط . ان كل شىء رهن بالاماكن والاوساط حقا . وان الايمان بالخوارق الطبيعية فى جزيرة جرينوبي لهو ضرب من الجنون .. ولكن فى قمة جبل سان ميشيل ؟ .. وفى الهند؟ .. اننا نعانى بصورة فظيعة من تأثير ما يحيط بنا . سأعود الى البيت الاسبوع المقبل .

٣٠ يولية

عدت الى المنزل امس . كل شىء على ما يرام .

٢ اغسطس

لا شىء جديد . اقضى أيامى فى تأمل نهر السين .

٤ اغسطس

مشاجرات بين الخدم . يزعمون أن بعضهم يكسر الاوانى الموجودة فى الدولاب ليلا . الوصيف يتهم الطاهية وهذه تتهم الخادمة والاخيرة تلقى التهمة عليهما ، فمن هو الجانى ؟ من ينبئنى بذلك ؟

٦ أغسطس

هذه المرة لست مجنونا ، فقد رأيت .. نعم ، رأيت . رأيت بعيني ولا أستطيع الشك بعد اليوم .. رأيت .. ولا زلت أرتعد من الخوف .. بل أكاد أتجمد من الخوف .

كنت أسير فى حديقتى ، فى نحو الساعة الثانية ، بين زهور الخريف التى بدأت تتفتح .

وفيما أنا واقف أتأمل غصنا به ثلاثة زهور جميلة ، رأيت فى وضوح .. نعم ، رأيت ساق احدى هذه الزهور يميل كما لو ان يدا خفية قد لوته ثم اذا بالزهرة تنفصل عن الغصن كما لو أن أحدا قطفها ثم ترتفع كما لو ان يدا ترفعها الى فم صاحبها ، وبقيت معلقة هكذا فى الهواء وحدها ... بقعة حمراء رهيبة على بعد ثلاث خطوات من عينى .

ذهلت واندفعت نحوها أريد الامساك بها ولكننى لم أجد شيئا فقد اختفت . وتملكنى عندئذ غضب شديد وسخطت على نفسى لأنه لا يجب لرجل عاقل ورزين مثلى أن يتعرض لمثل هذه الاوهام .

ولكن أكان هذا وهما حقا ؟ وعدت لكى أفحص الغصن فوجدت ساق الزهرة مكانه حديث الكسر ، بين الزهرتين الاخريين اللتين بقيتا مكانهما .

وعدت الى بيتى عندئذ مضطرب الفؤاد ... اننى واثق الآن ، واثق ثقتى من تعاقب الليل والنهار أنه يوجد بجوارى كائن خفى يتغذى بالماء واللبن ، فى مقدوره لمس الاشياء وأخذها وتغيير مكانها .. كائن حبته الطبيعة بقدرة مادية لا تدركها عقولنا ويعيش ، مثلى ، تحت سقف بيتى .

٧ أغسطس

نمت نوما هادئا . لقد شرب الماء من دورقى ولكنه لم يزعجنى فى نومى .

اننى أتساءل هل أنا مجنون ؟ انتابنى الشك فى ذلك ، وأنا أسير بطول الساحل . وهو شك ليس مبهما أو غامضا كذلك الذى كان يساورنى من قبل ، وانما هو شك محدد ومكتمل . اننى رأيت كثيرا من المجانين ، وعرفت فى بعضهم الذكاء والوضوح وبعد النظر فى كل ما يمت بالحياة فيما عدا نقطة واحدة فهم يتكلمون فى كل شىء فى وضوح وصفاء وعمق ، اذا ما خطرت ببالهم المسألة التى عصفت بذهنهم يتفتت فيهم كل شىء ويغرقون فى هذا المحيط المخيف الغاضب الذى تتلاطم فيه الامواج الهادرة وسحب الضباب والعواصف ... هذا المحيط الذى يدعونه بالجنون .

اننى لأعتقد طبعا أننى مجنون ، ومجنون حقا لو لم أكن أعرف حالتى تمام المعرفة ولو لم أكن أعرف اننى عاقل تماما . فأنا اذن لست أكثر من مهووس عاقل ، ولا ريب ان اختلالا ما قد عصف بعقلى .. أحد هذه الاختلالات والاضطرابات التى يدرسها علمـــاء النفس ويحاولون التوصل الى كنهها . ولا ريب أن هذا الاضطراب التى يدرسها علماء النفس ويحاولون التوصل الى كنهها . ولا ريب ان هذا الاضطراب قد أحدث فى ذهنى ، وفى دائرة العقل من رأسى ثغرة عميقة . ومثل هذه الاعراض نراها فى الاحلام التى تنقلنا الى أشد الظواهر غرابة دون أن تعترينا أية دهشة لان مركز العقل فينا نائم ، فى حين تظل حاسة الخيال باقية . أفلا يمكن أن تــكون احدى لمسات المخ قد أصابها الشلل عندى ؟ ان بعض الرجال ، على أثر بعض الحوادث يفقدون ذاكرة الاسماء أو الافعال أو الارقام أو التواريخ فحسب ، وقد ثبت لدينا الآن مراكز كل جزئيات الذهن ، فليس من المستغرب اذن أن تكون حاسة السيطرة على وهمية بعض التخيلات قد اختلت عندى فى هذه اللحظة .

كنت أفكر فى كل ذلك وأنا أسير بطول الساحل . وكانت الشمس تضىء البحيرة بأشعتها وتشيع الفرحة فى المكان وتملأ عينى حبــا بالحياة وبالعصافير التى تسعدنى بسرعتها وخفتها وبعشب الشاطىء الذى يملأ أذنى بهجة وطربا .

ومع ذلك ، وشيئا فشيئا كان يعترينى قلق خفى ، ويخيل لى ان قوة سحرية تجمد أعصابى وتوقفنى وتمنعنى عن المضى الى أبعد من ذلك وتردنى الى الوراء . كنت أحس بتلك الحاجة المؤلمة التى تدفعك الى العودة وتثقل عليك حين تترك فى البيت مريضا ويتملكك الاحساس بخطورة مرضه .

عدت الى البيت رغما عنى اذن وانا واثق اننى سأجد فيه نبأ سيئا ... رسالة أو برقية . ولكننى لم أجد شيئا ، وبقيت مشدوها واشد قلقا كما لواننى رأيت رؤيا غريبة من جديد .

٨ اغسطس

قضيت أمس ليلة رهيبة ، فهو لم يظهر بعد ، ولكننى أحس به قريبا منى . انه يراقبنى ويترصدنى ويتغلل فى أعماقى ويتسلط على وهو اشد خطرا اذ يختفى بهذه الطريقة مما لو كان يعلن عن وجوده الخفى المستمر بظواهر خارقة .

ولكننى نمت رغم ذلك .

٩ اغسطس

لا شىء .ولكننى خائف .

١٠ اغسطس

لا شىء . ماذا سيحدث غدا ؟

١١ اغسطس

لا شىء دائما . لم اعد استطيع البقاء فى بيتى مع هذا الخوف وهذه الفكرة المتغلغلة فى نفسى . سأرحل .

١٢ اغسطس

طوال اليوم وأنا أريد الرحيل ولا أستطيع . أردت التحرر بهذا

العمل البسيط ، نعم ، البسيط ، بأن أخرج وأركب عربتى وأمضى الى روان فلم أستطع ، فلماذا ؟

١٣ اغسطس

عندما يصاب المرء بمرض ما فان كل تروسه الطبيعية تبدو كأنها تحطمت ، وكل طاقاته وكأنها تبددت ، وتتراخى كل عضلاته وتلين عظامه حتى تبدو كاللحم واللحم نفسه يبدو سائلا كالماء . واننى أشعر بكل هذا فى كيانى المعنوى بطريقة عجيبة تدعو للأسى . لم أعد أشعر بأية قوة ولا بأية شجاعة ولا بأية سيطرة على نفسى ولا بأية قدرة فى تحريك ارادتى . لم أعد أستطيع أى شىء ، ولكن شخصا آخر يريد لى وأنا أطيعه .

١٤ اغسطس

أنا هالك ، فان شخصا ما يمتلك روحى ويسيرها وفق هواه . شخص يمتلك روحى ويتحكم فيها . شخص ما يملى على أعمالى وحركاتى وأفكارى . لم أعد أستطيع شيئا . ولم أعد أكثر من متفرج أسير ومذعور من كل ما أقدم عليه . أريد أن أخرج ولكننى لا أستطيع فهو نفسه لا يريد ، وأبقى مكانى مذهولا ، أرتعد فى مقعدى حيث يبقينى جالسا . أريد أن أنهض فحسب وأن أقوم لا لشىء الا لكى أعتقد اننى سيد نفسى ولكننى لا أستطيع . اننى مشدود الى مقعدى ، ومقعدى مشدود الى الارض بحيث لا تستطيع أية قوة أن تزحزحنا من مكاننا .

وفجأة اذا بى لابد أن أمضى الى آخر حديقتى لكى اجمع بعض الفراولة وآكلها ... وأمضى واجمع الفراولة وآكلها . أواه .. يا ربى ! رفقا بى وأنقذنى . يا لهذا العذاب ويا لهذا الألم ! ويا للفظاعة .

١٥ اغسطس

عرفت الآن مدى القوة التى تسلطت على ابنة عمى وتحكمت فيها عندما جاءتنى لكى تقترض منى خمسة آلاف فرنك . كانت واقعة تحت ارادة غريبة تمكنت منها ، كأن روحا أخرى احتلت جسدها وتحكمت فيها . هل هذه نهاية العالم ؟

ولكن « ذلك الخفى » الذى يتحكم فى مهما تكن طبيعته ، أيكون من جنس آخر غير جنس البشر ؟

هناك اذن أهل الغيب ! ولكن كيف لم يظهروا قبل اليوم منذ نشأة العالم ؟ لم أقرأ أبدا شيئا يشبه ما حدث فى بيتى . آه . لو أستطيع مغادرته ؟ لو أستطيع أن أمضى وأهرب دون رجعة . اننى لأنجو عندئذ ، ولكننى لا أستطيع .

تمكنت اليوم من الهرب مدة ساعتين ، كالاسير الذى يجد باب زنزانته مفتوحا صدفة وأحسست بأننى أصبحت حرا مرة واحدة ، وأنه أصبح بعيدا عنى . وأمرت باعداد مركبتى على الفور ومضيت الى روان . أوه ، ما أسعدنى اذ أستطيع أن أصدر أمرى لرجل يطيعنى وأن أقول له امض بى الى روان .

وتوقفت أمام المركبة العامة واستعرت مؤلف الدكتور هرمان هرستوس الذى ضمنه دراسته عن الكائنات الخفية فى العصرين ، القديم والحديث .

ولكننى عندما ركبت عربتى من جديد أردت أن أقول للسائق « الى المحطة » غير اننى لم أفعل ، وانما صحت بأعلى صوتى بحيث أن المارةالتفتوانحوى « الى البيت » ، ثم تهالكت جالسا وقد استبد بى القلق ، فهو قد وجدنى واستردنى .

١٧ أغسطس

آه . يا لها من ليلة ! وأى ليلة ! ومع ذلك فانه يخيل لى اننى

يجب ان أبتهج . فقد قرأت حتى الساعة الواحدة صباحا .. قرأت مؤلف هرمان هرستوس ، الاستاذ فى الفلسفة وفى علوم الدين وقد اورد فى كتابه هذا تاريخ وظهور جميع الكائنات الخفية التى تحلق بالانسان والتى تظهر فى أحلامه ووصف نشأتهم ومناطقهم وقوتهم . ولكن ليس فيهم من يشبه ذلك الذى يلازمنى حتى انه ليخيل لى ان الرجل ، منذ أن بدأ يفكر قد استشعر وأحس بظهور كائن جديد اقوى منه وبأن هذا الاخير سيخلفه فى الارض واذ شعر به قريبا منه وغير قادر على معرفة طبيعة هذا السيد فى هلعه ، كل الشعب الخيالى للكائنات الخفية والاشباح الغامضة التى ولدها الخوف .

وبعد ان قرأت حتى الساعة الواحدة مضيت فجلست بجوار النافذة المفتوحة لكى أرطب جبينى وأنعش ذهنى بنسيم الليل الهادىء .

وكان الجو جميلا ودافئا . شد ماكنت أحب مثل هذه الليلة فيما سبق !

وكان القمر غائبا والنجوم تتألق فى كبد السماء وتعكس أضواءها المرتجفة .. من الذى يقيم فى هذه العوالم ؟ أية اشكال وأية كائنات وأية حيوانات وأى نباتات توجد هناك ؟ .. والذين يفكرون فى هذه العوالم البعيدة . ماذا يعرفون أكثر منا ؟ وما الذى يقدرون عليه أكثر منا ؟ ماذا يرون ولا نعرفه نحن ؟ أولا يترك أحدهم ذات يوم السماء ويأتى الى أرضنا لكى يغزوها كما فعل النورمانديون من قبل حين عبروا البحار لاستعباد شعوب أضعف منهم ؟

انما قوم عاجزون جدا ومجردون تماما ، على قدر كبير من الجهل .. حقير شأننا فى هذه البقعة من الطمى التى تدور مذابة فى قطرة من الماء .

وغلبنى النوم وهذه الافكار تراودنى . وبعد نحو أربعين دقيقة فتحت عينى دون أن أبدى أية حركة وقد أيقظنى شعور غريب مبهم . ولم أر شيئا فى بادىء الامر ولكن خيل لى فجأة ان ورقة من الكتاب

المفتوح الذى تركته على المكتب قد قلبت من تلقاء نفسها ، ولم تكن قد دخلت من النافذة أية نسمة من الهـــواء . وعرتنى الدهشة وانتظرت . وبعد نحو أربع دقائق تقريبا . رأيت ... نعم ، رأيت ، رأيت بعينى رأسى ورقة أخرى ترتفع فى الهواء وتنضم الى الورقة السابقة كما لو ان اصبعا قد قلبها . وكان مقعدى خاليا أو يبدو خاليا ، ولكننى أدركت انه يجلس عليه مكانى وانه يقرأ . وهببت واقفا وأسرعت محنقا كالحيوان الثائر الذى يريد أن يفترس مروضه واجتزت غرفتى للامساك به وقتله . ولكن المقعد انقلب قبل أن أبلغه كما لو ان الجالس عليه قد فر أمامى . واهتز مكتبى ووقع المصباح وانطفأ وأقفلت النافذة كما لو أن لصا قد فوجىء واندفع فى جوف الليل ولاذ بالفرار .

هرب اذن .. وتملكه الخوف .. أخذه الخوف منى أنا ..

غدا اذن .. غدا .. أو بعد غدا .. أو فى أى يوم آخر .. سأستطيع أن أمسكه بيدى وأن أسحقه فوق الارض . أفلا تعض الـكلاب أحيانا أسيادها وتقضى عليهم ؟

١٨ أغسطس

فكرت طوال اليوم . أوه ، نعم . سوف أطيعه وأتبع نزواته وأنفذ ارادته وأخضع له وأبدى له جبنى ، فهو الاقوى ، ولكن ستأتى ساعة ...

١٩ أغسطس

اننى أعرف ... نعم ، أعرف ... اعرف كل شىء ، فقد قرأت الآن فى المجلة العلمية ما يلى :

« جاءنا من ريو دى جانيرو نبأ غريب ، فقد ظهر فى هذه الايام ، فى قرية سان باولو وباء من الجنوب أشبه بذلك الوباء المعدى الذى أصاب شعوب أوروبا فى العصور الوسطى ، فقد هجر الاهالى بيوتهم

وقد استولى عليهم الاضطراب وتملكهم الفزع وتركوا مزارعهم وبدوا كالقطيع البشرى كما لو ان هناك قوى خفية تطاردهم زاعمين ان هناك عفاريتا تهاجمهم ليلا وتتغذى بدمائهم أثناء نومهم ويشربون فوق ذلك الماء واللبن ولا يقربون أى طعام آخر .

« وقد انتقل الاستاذ دون بدرو ومعه كثيرون من أساطين العلم والطب الى بلدة سان باولو لدراسة هذه الظاهرة العجيبة فى نفس المكان الذى ظهرت فيه ومعرفة أسباب هذا الجنون العجيب لكى يقدموا للامبراطور الاجراءات التى يرونها لاعادة العقل الى هؤلاء الاهالى المساكين » .

آه . آه . اننى أذكر تلك السفينة البرازيلية ذات الصوارى الثلاثة التى مرت أمام بيتى وهى تعبر نهر السين فى الثامن من شهر مايو الماضى . وكانت سفينة جميلة بيضاء يسودها جو من المرح ، وقد كان الكائن فوقها ، أتى فيها من هناك ، من موطنه حيث ولد ورآنى فى بيتى الابيض هو الآخر وقفز من السفينة الى الى الشاطىء الآن . أوه يا الهى !

اننى أعرف الآن واحدس ان دولة الانسان قد انتهت .

لقد أقبل ، ذلك الذى كان يخشاه أوائل البشر البدائيين ، ذلك الذى يستعيذ منه الكهنة الواجفون والذى يستحضره السحرة فى الليالى المدلهمة دون أن يظهر لهم والذى نسب اليه سادة الدنيا الاولون كل الاشكال والصور الفظيعة والرقيقة للعفاريت والارواح والغيلان والجن . وبعد الاستيعاب الفظ للهول البدائى استشعره رجال أكثر ذكاء . وقد خمنه مسمر واكتشف الاطباء منذ عشر سنوات بطريقة محدودة طبيعة قوته قبل أن يمارسها هو نفسه واستخدموا هذا السلاح الجديد للسيطرة على الانسان ، ونسبوا اليه أسماء كثيرة منها التنويم المغنطيسى والسحر والايحاء ... وأسماء أخرى لا أدريها ، ورأيتم يلهون كالاطفال المتهورين بهذه القوة المريعة . ويل لنا ... ويل للانسان ... انه أقبل .. بماذا أدعوه .. يخيل لى أنه يهتف لى باسمه ولا أسمعه .. نعم .. انه

ينطق به .. وانني أسمع .. لا أستطيع .. أعد .. تقول الهورلا ؟
.. نعم ، انني سمعت .. انه هو .. الهورلا .. لقد أقبل .

آه . لقد أكل النسر الحمامة والتهم الذئب الحمل وافترس الاسد الثور رغم قرنيه الحادين . وقتل الرجل الاسد بالسهم ثم بالسيف ثم بالبارود . ولكن الهورلا سيفعل بالرجل ما فعلناه نحن بالحصان والبقرة فيستعبده ويرغمه على خدمته ويتغذى به بقوة ارادته فحسب ... الويل لنا .

ولكن الحيوان يتمرد أحيانا ويقتل سيده ·· وأنا أيضا أريد ··· بل أستطيع ، ولكن يجب أن أعرفه وألمسه وأراه ، ان العلماء يقولون ان عين الحيوان تختلف عن عيننا ولا ترى كما نرى نحن .. وعينى انا لا تستطيع ان ترى الوافد الجديد الذى يضطهدني .

لماذا ؟ أوه ، انني أتذكر الآن قول راهب جبل سان ميشيل « وهل نرى واحدا على الالف مما فوق الارض ؟ اليك الريح مثلا ، وهى أكبر قوة فى الطبيعة ، تقلب الرجال وتهدم العمارات وتقتلع الاشجار وتعصف بالبحار وتدفع بالبواخر الكبيرة فوق الصخور ... الريح التى تقتل والتى تصفر وتئن وتهدر ، هل رأيتها ؟ .. وهل تستطيع أن تراها ؟ .. ومع ذلك فهى موجود » .

ورحت أفكر مره أخرى وأقول لنفسى ان عينى ضعيفة جدا وغير مكتملة بحيث لا ترى حتى الاجسام الصلبة اذا كانت شفافة كالزجاج مثلا .. لو ان لوحا من الزجاج الابيض العادى يعترض طريقى فسوف تدفعنى نحوه فأرتطم كما يتحطم العصفور حين يريد دخول حجرة فترتطم رأسه بلوح الزجاج ويموت . ثم ان ألف شىء تضل العين وتخدعها فهل من الغريب اذن ألا نرى جسدا جديدا يخترقه الضوء .

كائن جديد ؟ .. ولم لا .. كان لابد أن يأتى حتما فلماذا نكون نحن آخر الكائنات . اننا لا نراه أبدا كما أننا لم نر كل الذين خلقوا قبلنا ، ذلك ان طبيعته أشد اكتمالا وجسده أكثر رقة واتقانا من جسدنا .. من جسدنا الضعيف بأجهزته المتعبة المكدودة دائما كما

لو كانت تروس معقدة التركيب ... جسدنا الضعيف الذى يعيش كما يعيش النبات والحيوان متغذين بكل مشقة بالهواء والعشب واللحم ... آلة حيوانية فريسة للامراض والتشوهات والعفن ، غير منتظمة ، ساذجة وغريبة وغير دقيقة ، ورقيقة .. تخطيط لكائن كان يمكن أن يغدو ذكيا ومتفوقا .

نحن قوم قليلون جدا فى هذا العالم . بدءا من المحارة حتى الانسان ، فلماذا لا يأتى كائن آخر بعد أن ينتهى العصر الذى يفصل التخيلات المتعاقبة عن سائر الانواع الاخرى ؟

لماذا لا يكون هناك كائن زيادة ؟ لماذا لا تكون هناك أشجار أخرى ذات زهور ضخمة متألقة تقطر بشذاها مناطق بأكملها . ولماذا لا تكون هناك عناصر أخرى غير النار والهواء والارض والماء ؟ انها أربعة عناصر لا أكثر ، تغذى جميع الكائنات ، وانه لأمر غريب يدعو للرثاء اذ لماذا لا تكون هذه العناصر أربعين أو أربعمائة أو أربعة آلاف ؟ لكم يبدو كل شىء فقيرا تافها حقيرا يتجلى البخل فى مخه والفظاظة فى ابتداعه . آه . الفيل وفرس النهر ما أرقهما ! والجمل ما أشد أناقته !

أتقولون الفراشة .. زهرة تطير . اننى أحلم براحدة تكون من الكبر حتى لتبلغ حجم مائة من العوالم بأجنحة لا أستطيع تصور شكلها ولا جمالها ولا لونها ولا حركتها وانما أراها تتنقل من نجمة الى أخرى تنعشها وتعطرها بنسمة طيرانها العذبة الخفيفة ، تنظر اليها شعوب السماء وهى تحلق فى منتهى النشوة والبهجة .

ما هذا الذى بى اذن ؟ انه هو .. هو ، الهورلا .. انه يلاحقنى ويلازمنى ويجعلنى أفكر فى هذه الخواطر الجنونية . انه يغدو روحى .. سأقتله .

١٩ أغسطس

سأقتله . اننى رأيته . اننى رأيته . جلست مساء أمس أمام مكتبى

وتظاهرت بأننى أكتب باهتمام كبير . كنت أعلم تماما انه سيأتى ويحوم حولى ويدنو منى بحيث قد أتمكن من لمسه . ومن يدرى ، ربما أستطيع الامساك به . وعندئذ ، عندئذ فقط قد أجد شجاعة اليائسين وأستطيع ، بيدى وركبتى وصدرى وجبينى وأسنانى أن أخنقه وأحطمه وأعضه وأمزقه تمزيقا .

ورحت أراقبه بكل حواسى .

وكنت قد أضأت المصباحين والشمعات الثمانى فوق الموقد كما لو أننى قد أتمكن من اكتشافه فى هذا الضوء .

كان أمامى فراشى ، وهو فراش عتيق من خشب البلوط ذو أعمدة والى يمينى الموقد والى اليسار باب الغرفة وقد أغلقته بعناية كبيرة بعد أن تركته مفتوحا مدة طويلة لاجتذابه ، وخلفى دولاب كبير ذو مرآتين استخدمهما كل يوم فى الحلاقة وفى ارتداء ثيابى ، وكان من عادتى أن أتطلع الى صورتى فيهما كلما مررت أمامهما .

كنت أتظاهر اذن بالكتابة لكى أخدعه لانه كان يراقبنى هو الآخر . وفجأة أحسست ، بل تأكدت انه واقف خلفى يقرأ ما أكتب وانه يكاد يلامسنى .

واعتدلت ، باسطا ذراعى وأنا أستدير فجأة بحيث أوشكت أن أقع . حسنا . كان الضوء يملأ الغرفة كما لو ان الوقت كان نهارا ومع ذلك فلم أر صورتى فى المرآة ، فقد كانت خاوية تماما من أى انعكاس غير انعكاس النور . ولم تكن صورتى فيها . كنت واقفا أمامها ، أرى الزجاج الشفاف من أعلاه الى أسفله ، وكنت أرى هذا بعينين مذعورتين ، ولم أجرؤ على التقدم ، بل لم أعد أجرؤ على الاتيان بأية حركة وأنا أحس مع ذلك بأنه موجود معى وانه سيفلت منى مرة أخرى ... هو الذى التهم جسده الشفاف صورتى .

شد ما تملكنى الخوف . وفجأة ، ومن خلال ضباب بدا فى عمق المرآة بدأت صورتى تتضح ، خلال ضباب بدا كأنه حصيرة من الماء . وخيل لى أن هذا الماء ينساب من اليسار الى اليمين ، فى بطء موضحا صورتى أكثر فأكثر من ثانية لأخرى . كان الامر يبدو كأنه خاتمة

كسوف . وكان الجسم الذى يحجبنى يبدو كأن لا حدود واضحة له وانه انما هو نوع من الكثافة الشفافة تتضح شيئا فشيئا .

واستطعت أخيرا أن أرى نفسى تماما ، كما أفعل كل يوم ، وأنا أنظر الى المرآة .

انى رأيته . وقد تملكنى الرعب ، ولا زلت أرتعد حتى الآن .

٢٠ أغسطس

كيف أقتله وأنا لا أعرف كيف أصل اليه . أبالسم ؟ ولكنه سيرانى وأنا أضعه فى الماء . وهل تكون لسمومنا أى تأثير على جسده الذى لا أراه ؟ .. كلا ، كلا .. لا تأثير لها عليه دون أى ريب .. اذن .. اذن ؟

٢١ أغسطس

استدعيت حدادا من مدينة روان وطلبت منه أن يصنع لشباكى شبكة حديدية كما يفعل البعض فى باريس ، فى بعض الفنادق وفى الادوار الارضية خوفا من اللصوص . وقد طلبت منه أن يزود بابى بباب آخر حديدى .. وبدا له اننى جبان رعديد ولكننى لا أبالى .

١٠ سبتمبر

روان . فندق الكونتيننتال . قضى الامر . ولكن هل مات ؟ ان أعصابى مضطربة لفرط ما رأيت .

جاء الحداد بالامس وركب الشبكة الحديدية بالشباك وكذلك الباب الحديدى . وتركت كل شىء مفتوحا حتى منتصف الليل على الرغم من أن الجو قد بدأ يتسم بالبرودة .

وفجأة أحسست بأنه موجود معى ، فاستولى على سرور لا حد له ونهضت فى بطء ورحت أمشى جيئة وذهابا مدة طويلة لكى

لا يخمن شيئا ثم خلعت حذائى ولبست الشبشب فى غير اكتراث ثم أغلقت الشبكة الحـــديدية وعدت فى هدوء نحو الباب وأغلقته وأدرت المفتاح دورتين . ورجعت الى النافذة وثبت الشبكة بقفل متين ووضعت المفتاح فى جيبى .

ولم ألبث أن أدركت انه بدأ يضطرب وان الانفعال قد أخذ يتملكه وأنه يأمرنى أن أفتح له . وأوشكت أن أرضخ لمشيئته ، ولكننى لم أفعل وانما اعتمدت بظهرى على الباب وورابته قليلا بما يكفى لمرورى فحسب وأنا أمشي القهقرى . ولما كنت مديد القامة فقد لامست رأسى أعلى الباب وكنت واثقا أنه لن يستطيع الافلات وسجنته وحده .

ويا لفرحتى ! اننى أوقعت به . وعنـــدئذ هبطت ركضا وأخــذت المصباحين من غرفة الصالون وسكبت ما فيهما من زيت فوق السجادة وفوق المفروشات وفى كل مكان ، ثم أشعلت النار وفررت بعد ان أحكمت اغلاق الباب بالمفتاح مرتين .

ومضيت الى الحديقة واختبأت فى ركن قصى بين بعض الاشجار . وطال انتظارى . كان كل شيء مظلما ، صامتا ، لا يتحرك . ولم تكن هناك نسمة واحدة من الهواء ولا نجمة فى صفحة السماء ، وانمـا كانت هناك جبال من السحب لم أكن أراها ومع ذلك فقد كانت تثقل على صدرى .

ووقفت أنتظر وأنا أنظر الى المنزل . ويا له من انتظار ! وطال الامر بى ، وحسبت ان النار انطفـأت من تلقـــاء نفسها أو انه أطفأها بنفسه عندما اندلع اللهب من احدى نوافذ الدور الارضى ، وكان لهبا أحمر وأصفر أخذ يصفر مع الريح ويعلو حتى غلفت شعلته البيت كله وكست سقفه ، ولم يلبث ان امتد الى الاشجار المحيطة والاغصان والاوراق . وسرت فى بدنى رعشة من الخـــوف واستيقظت الطيور وارتفع نباح كلب وخيل لى ان النهار قد طلع وفرقعت نافذتان ورأيت ان الدور الارضى من بيتى قد أصبح كله جمره مخيفة . ولكن صيحة .. صيحة مرعبة حـادة مريعـــة .. صيحة امرأة دوت فى جوف الليل وانفتحت نافذة فى الدور العلوى

.. كنت قد نسيت الخدم ، ورأيت وجوههم والذعر ينطق فيهـا واذرعتهم التى تتحرك فى طلب النجدة .

ملئت عندئذ رعبا ورحت أعدو نحو القرية وأنا أصرخ : النجدة .. النجدة .. النار .. النار .. والتقيت بأناس يهرعون فعدت معهم لـكى أرى .

كان البيت قد أصبح شعلة متأججة من النار .. شعلة مخيفة ، هائلة تضىء المكان كله .. شعلة يحترق فيها بعض الناس ويحترق هو الآخر فيها .. هو ، أسيرى .. آلكائن الجديد .. السيد .. الهورلا !

وفجأة انهار السقف وتداعى بين الجدران . واندلع بركان من النار نحو السماء .

ومن كل النوافذ المفتوحة رأيت جحيم النار ، ودار بذهنى انه قد مات فى هذا الجحيم النارى .

مات ؟ ربما ؟ .. ولكن جثته ؟ ان جثته لا تخترقها النور وربما لا تؤثر فيها النار ولا كل الوسائل التى تقتل أجسادنا .

واذا لم يكن قد مات ؟ لعل الوقت له وحده تأثير على هذا الكائن الخفى المخيف ، والا فلماذا هذا الجسد الشفاف ؟ .. هذا الجسد الخفى ، هذا الجسد الروحى اذا كان يجب أن يخشى هو الآخر الآلام والجراح والعاهات والابادة العاجلة .

الابادة العاجلة ؟ ان كل الرعب البشرى يأتى منها هى . فبعد الانسان .. الهورلا .. بعد ذلك الذى يجب أن يموت كل الايام فى كل الساعات ، وفى كل الدقائق ، وفى كل الحوادث ، أتى ذلك الذى لا يجب أن يموت الا فى يومه وفى سـاعته وفى دقيقته لانه لمس حدود وجوده .

كلا .. كلا .. دون أى ريب .. دون أى ريب .. انه لم يحدث .. اذن .. اذن .. لابد لى أنا اذن من الانتحار .

حب



حب

فرغت الآن من قراءة نبأ فى احدى الجرائد عن مأساة حب . قتلها ثم انتحر ، ومعنى هذا أنه أحبها ولكن لا يهمنى من أمره وأمرها شيء ، وانما يهمنى حبهما وحده ، وهو لا يهمنى البتة لانه يؤثر فى أو لانه يثير دهشتى أو انفعالى أو لانه يحملنى على التفكير وانما لانه يعيد الى ذهنى ذكرى من ذكريات شبابى ، ذكرى صيد غريبة تبدى لى الحب فيها كما تبدت الصلبان لاوائل المسيحيين فى كبد السماء .

ولدت ومعى كل غرائز وحواس الرجل البدائى التى خففتها مبررات واحساسات الرجل المتحضر ، فاننى أحب الصيد حبا جما ، ومنظر الطير الجريح ودمه يغطى ريشه ويلوث يدى يقبض قلبى الى حد الارهاق .

فى تلك السنة ، فى آخر الخريف أقبل البرد فجأة ، ودعانى ابن عمى كارل دى روفيل للذهاب معه لصيد البط فى المستنقعات عند طلوع النهار .

وابن عمى هذا شاب فى الاربعين من عمره ، أشقر اللون ، قوى البنية ، كث اللحية ، من وجهاء الريف ، انسان فظ ولكنه لطيف ، مرح الاعطاف ، يميل المرء الى صحبته ، ويقيم فى قصر أشبه بالمزرعة فى واد فسيح يجرى فيه أحد الانهار ، تغطى الغابات تلاله على اليمين وعلى الشمال ، وهى غابات عتيقة تنمو فيها أشجار ضخمة رائعة ، فيها أندر أنواع الصيد التى تجدها فى هذه الناحية من فرنسا . وقد صيد فيها النسور فى بعض الاحيان ، وكذلك بعض الطيور المهاجرة ، تلك الطيور التى نادرا ما تأتى الى بلادنا وتضطر الى

الوقوف حتما فوق هذه الاغصان العريقة فى القدم ، كما لو كانت قد عرفت أو تذكرت ركنا صغيرا من احدى غابات العصور القديمة بقى فى هذا المكان لكى يكون ملجأ وملاذا لها فى رحلتها الليلية ..

وفى الوادى أعشاب طويلة ترويها جداول وتفصل بينها سدود ، وفيما بعد يتسع النهر ويمتد فى مستنقع فسيح ، وهذا المستنقع منطقة صيد من أروع المناطق التى رأيتها حتى الآن ، ويهتم ابن عمى به كل الاهتمام ، فكان يعنى به كما لو كان بستانا ، وهو يزخر بأعواد البوص التى تجعله يبدو كما لو كان ينبض بالحياة ويصخب ويتلاطم ، شقت فيه طرق ضيقة تنساب فيهـــا الزوارق الخفيفة بواسطة المجاديف فوق المياه الصامتة ، وتلمس أعواد البوص وتحمل الاسماك السريعة على الهرب خلال الاعشاب ، والدجاج البرى على الغوص فتختفى رءوسها المدببة فى الماء الاسود فجأة .

وأنا أحب الماء حبا عظيما ، وأحب البحر رغم سعته وهديره وعدم السيطرة عليه ، والانهار الجميلة التى تنساب وتتسرب وتجرى ، وعلى الخصوص المستنقعات حيث تخفق بكل الحيـــوانات المجهـولة للحيوانات المائية . فان المستنقعات عالم بأكمله فوق الارض ، عالم مختلف له حياته الخاصة وسكانه المقيمون ومسافروه العـــابرون وأصواته وضجيجه ، وسره على وجه الخصوص ، فليس هناك ما يثير القلق والاضطراب ويدعو الى الخوف فى بعض الاحيان اكـثر من المستنقع ، فلماذا ذلك الخوف الذى يحوم فوق هذه الاراضى المنخفضة التى يغطيها الماء ؟ أهى أصوات أعواد البوص الغامضة أو هو ذلك الوهج وذلك الصمت العميق الذى يطبق عليها فى الليالى الهادئة ، أو لعلها سحب الضباب الغريبة التى تكسو الاعشاب كما لو كانت ثياب موتى ، أو ربما يكون خرير الماء الخفيف والرقيق والذى يدوى فى بعض الاحيان دوى مدافع الرجال أو رعد السماء الذى يجعل المستنقعات أشبه ببلاد الاحلام أو ببلاد رهيبة تخفى سرا مجهـولا وخطيرا .

كلا . شىء آخر ينبعث منها ، سر آخر أشد عمقا وأكثر خطرا

يحلق فى الضباب الكثيف . لعله سر الكون نفسه . أفلم تخفق وتتفتح اول جرثومة للحياة فى الماء الراكد الموحل وفى رطوبة الاراضى المبتلة تحت قيظ الشمس .

***

وصلت الى بيت ابن عمى مساء ، وكان الجو زمهريرا .

وبينما كنا نتناول العشاء فى غرفة الطعام الكبيرة التى غطت صواوينها وجدرانها وسقفها بالطيور المحنطة ذات الاجنحة المنبسطة والجاثمة على أغصان مثبتة بالمسامير من صقور وبوم وعقبان ونسور راح ابن عمى ، وكان هو نفسه أشبه بحيوان غريب من حيوانات البلاد الباردة ، مرتديا سترة من جلد الفقمة ، راح يحدثنى عن الاجراءات التى اتخذها لهذه الليلة بالذات .

كان المفروض أن نخرج فى منتصف الساعة الرابعة صباحا لكى نصل نحو الرابعة والنصف الى النقطة التى اختارها لكى تكون مجثما لنا . وكان قد شيد فى ذلك المكان كوخ من قطع من الجليد ليقينا شيئا ما من الريح الفظيعة التى تسبق طلوع النهار ، تلك الريح الباردة التى تمزق اللحم كالمنشار وتقطعه كالنصال وتخزه كالابر المسمومة وتلويه كالكماشات وتحرقه كالنار .

راح ابن عمى يدعك يديه ويقول « لم أر أبدا ليلة باردة كهذه » . كانت الدرجة قد بلغت الثانية عشرة تحت الصفر فى الساعة السادسة مساء .

ومضيت فاستلقيت على فراشى بعد ان فرغنا من تناول الطعام ، ونمت على ضوء شعلة كبيرة متوهجة فى الموقد .

وأوقظت من نومى والساعة تدق الثالثة صباحا فتدثرت بدورى فى فروة خروف ووجدت ابن عمى متدثرا فى فراء دب ، وبعد ان تناول كل منا فنجانين من القهوة الساخنة وكأسين من الشمبانيا خرجنا وبرفقتنا الحارس وكلبانا بلونجون وبييرو .

وما أن غادرنا البيت حتى شعرت بأن جسدى كله يتجمد . كانت الليلة من تلك الليالى التى تبدو فيها الدنيا كأنها ماتت من البرد ،

كان الهواء قارسا جديدا شديد الايلام . لم تكن هناك نسمة واحدة لكى تلطف من حدته ، وانمـــا كان ســـاكنا يخترق ويجفف ويقتل الاشجار والنباتات والحشرات ، وحتى الطيور الصغيرة التى تقع من الاغصان على الارض الصلبة وتتيبس هى الاخرى مثلها من شدة البرد .

وكان القمر ، فى ربعه الاخير مائلا على جنبه وشاحبا جدا ويبدو خائر القوى وسط الفضاء ، وبالغ الضعف بحيث لم يعد يستطيع الانصراف ، فبقى مكانه عاجزا عن الاتيان بأية حركة وقد شل البرد قواه وراح ينشر ضوءا سلبيا وحزينا على الكون .. ذلك الضوء الخافت الشاحب الذى يرسله فى أواخر أيامه .

كنا نمشى أنا وكارل ، جنبا الى جنب ، وقد أحدودب ظهرانا ، فى جيوبنا ، والبندقية تحت أبطينا وقد لففنا أحذيتنا بلفافات من الصوف لـكى نستطيع أن نمشى دون أن ننزلق فوق النهر المتجمد ، فكنا نتقدم دون أن يصدر منا أى صوت ، وكنت أنظر الى الدخان الابيض الذى يتصاعد من نفس كلبينا .

ولم نلبث ان بلغنا شاطىء المستنقع وانعطفنا الى أحد الممرات بين أعواد البوص الجافة التى تمتد خلال هذه الغابة المنخفضة .

وكان مرفق كل منا يلامس الاوراق الطويلة الممتدة أمامنا ويترك وراءنا صوتا خفيفا ، وقد أسرنى ذلك الانفعال الغريب والقوى الذى تولده المستنقعات فى النفس . ولكن ذلك المستنقع كان قـد مات من البرد لاننا كنا نمشى فوقه بين الاعشاب الجافة .

وفجأة ، وعندمنعطف أحد الممرات رأيت الكوخ الجليدى الذى شيد لكى نحتمى به ، فدخلته ، ولما كانت لا تزال هناك نحو ساعة على يقظة الطيور المهاجرة فقد التففت فى غطائى لكى لا أشعر بالبرد .

ورحت أنظر الى القمر وأنا مستلق على ظهرى فى فراشى ، وبدا لى وهو فى ربعه الاخير كأنه مشوه وله أربعة قرون من خلال الالواح الجليدية الشفافة لهذا البيت القطبى .

ولكن برد المستنقع المتجمد .. برد هذه الجدران الجليدية ، ذلك البرد الذى يهبط من قبة السماء لم يلبث أن تغلغل فى جسدى بحيث اخذنى السعال .

واستولى القلق على ابن عمى كارل وقال : « لا بأس اذا نحن لم نصب الكثير من الصيد اليوم ، فلا أريد أن تصاب بالزكام . سنشعل نارا الآن » . وأصدر أمره للحارس لكى يقطع بعض أعواد البوص .

وعاد الحارس بكومة منها وضعها فى وسط الكوخ وأشعل النار بعد أن أحدث ثغرة فى سقف الكوخ لكى يتسرب منها الدخان . وعندما ارتفع اللهب الاحمر بطول الجدران البللورية الصافية راحت تذوب فى بطء تقريبا كما لو ان هذه الاحجار الجليدية تتصبب عرقا . وكان كارل قد بقى فى الخارج فصاح بى « تعال أنظر اذن » وخرجت ووقفت والدهشة تعقد لسانى فان كوخنا المخروطى بدا كماسة ضخمة ذات قلب من نار دفعت فجأة فوق ماء المستنقع المتجمد ، وبداخلها حلقتان ضخمتان هما كلبانا اللذان يصطليان .

ولكن صيحة غريبة ، ضائعة ، شاردة انطلقت فوق رءوسنا ، فان وهج النار أيقظ الطيور البرية .

ولا شىء يثير انفعالى كصيحة الحياة الاولى التى لا أراها أبدا والتى تنطلق فى الهواء المظلم بتلك السرعة وعلى ذلك البعد قبل أن يبدو فى الافق أول ضوء من نور النهار فى أيام الشتاء . وخيل لى فى تلك الساعة الباردة من الفجر أن هذه الصيحة البعيدة التى اطلقتها احدى الطيور البرية انما هى زفرة أطلقتها روح الدنيا .

وقال كارل : أطفىء النار .. ها هو ذا الفجر .

والواقع ان السماء بدأت تشحب وتبهت وراحت أسراب البط ترسم بقعا طويلة سريعة فى الافق .

ودوى وميض فى الليل ، فقد أطلق كارل الرصاص من بندقيته واندفع الكلبان .

ورحنا عندئذ نطلق الرصاص من دقيقة لاخرى ، تارة أنا ، وتارة

هو بمجرد أن يظهر فى الافق ظل سرب طائر . وكان بلونجون وبيرو يندفعان مرحين ويعودان الينا ، لاهثين ، بالطيـور الدامية وعين بعضها لا يزال ينظر الينا .

وكان النهار قد طلع ، والجو صافيا وجميلا والشمس تبزغ فى آخر الوادى . وفكرنا فى العودة عندما رأينا طائرين يحلقان فـوق رأسينا وقد مد كل منهما رأسه وبسط جناحيه . وأطلقت النار فوق أحدهما بجوار قدمى تقريبا . كانت بطة برية فضية الصدر . وسمعت عندئذ ، فى الفضاء ، فوقى ، صوتا يصيح . كان صوت طائر ، وكانت صيحة عبارة عن أنين قصير ، أنين متكرر يقطع نياط القلوب ، وراحت البطة الاخرى ، تلك التى لم أصبها تدور فى زرقة السماء ، فوقنا ، وهى تنظر الى زميلتهـا الميتة التى أمسكها بين يدى .

وجثا كارل على ركبتيه وسدد بندقيته وراح يرقبهـا ، متقد العينين ، وينتظر أن تزداد دنوا منه .

وقال يحدثنى : انك قتلت الانثى . والذكر لن يذهب .

ولم يذهب الطائر حقا وانما راح يدور حولنـا وهو يبكى . وأبدا لم يتمزق قلبى لنواح وألم كما تمزق لنواحه وألمه ولندائه اليائس وعتابه المحزن .

وكان يهرب أحيانا أمام تهديد البندقية التى تتابعه ويبدو مستعدا لمتابعة طريقه وحده عبر السماء ، ولكنه لا يستطيع أن يحزم امره فلا يلبث ان يعود للبحث عن أنثاه .

وقال كارل يخاطبنى : دعها على الارض فسوف يقترب منهـا بعد لحظات .

واقترب فعلا غير حافل بالخطر وقد شغفه حبه الحيوانى للحيوان الآخر الذى قتلته .

وأطلق كارل . وأصابت الطلقة ذكر البط ورأيته يقع وكأن الحبل الذى يقف عليه قد انقطع . وسمعت صوت سقطته بين الاعشاب . وجاءنى بيرو به .

وألقيتهما فى حقيبتى ، باردين ، وعدت فى نفس ذلك اليوم الى باريس .

العــين



العين

« اعتداء أفضى الى الموت » هذه هي التهمة التى مثل بها السيد ليوبولد رينار ، المنجد أمام محكمة الجنايات .

والتف حوله الشهود الرئيسيون وهم أرملة القتيل ، السيدة فلاميش ، ولويس لوديرو النجار وجان دوردان السباك .

واليكم المأساة كما رواها ليوبولد رينار .

« رباه ! .. انها مصيبة كنت انا ضحيتها طوال الوقت ، وليس لارادتى أى دخل فيها ، والحقائق تتكلم عن نفسها يا سيدى القاضى ، فأنا رجل شريف ، عملى التنجيد فى نفس الشارع منذ ستة عشر عاما ، يعرفنى ويحبنى ويحترمنى ويقدرنى الجميع كما يشهد بذلك الجيران ، حتى البواب فهو لا يظل ثملا كل الايام . واحب عملى ، واحب الاقتصاد واحب الناس الشرفاء والمتع الشريفة ، وهذا هو سبب ضياعى ، وهلاكى . ولما لم يكن لارادتى دخل فيما حدث فاننى سأبقى على احترامى لنفسى .

« ذلك أننى أمضى كل يوم أحد ، أنا وزوجتى ، منذ خمس سنوات لقضاء اليوم فى بواسى ، وهناك نستنشق الهواء النقى ، زد على ذلك اننا نحب الصيد بالصنارة .. أوه ، نحبه حبا جما ، وميليا ، تلك الخبيثة هى السبب فى هذا الحب ، بل انها أشد احتداما منى ، كما أنها هى السبب فى هذه المصيبة كما سوف ترى .

« وأنا رجل قوى ، حلو المعشر ، لا أحتد ولا اغضب بسهولة . ولكن ميليا ، أوه ، أوه ... انها حادة الطباع الى درجة فظيعة ، واسأل البواب الذى تكلم فى صالحى منذ قليل فسوف يقول لك عنها الكثير .

« كان لا يمضى يوم الا وتلومنى على رقتى ودماثة خلقى . وكانت تقول : « اننى لا أرضى بهذا ... لا أرضى بهذا أبدا » ولو أننى استمعت اليها يا سيدى القاضى لتبارزت بسببها ثلاث مرات على الاقل كل شهر .

قاطعته زوجته قائلة : تكلم كما يحلو لك . انما يضحك أكثر من يضحك فى النهاية .

تحول زوجها اليها وقال فى سلامة نية : حسنا . يمكننى أن ألقى بالتهمة عليك .

ثم استطرد يقول موجها حديثه للقاضى : كنا نذهب الى بواسى اذن مساء كل يوم سبت لكى نبدأ الصيد من فجر اليوم التالى . وأصبحت هذه عادة مألوفة على مدى الايام . وكنت قد اكتشفت منذ ثلاثة أعوام مكانا ، وأى مكان ! أوه .. مكان رائع يبلغ من العمق ثمانية أقدام على الاقل أو ربما عشرة .. عين ولا كل الاعين .. بحيرة عامرة بالسمك .. جنة بالنسبة للصياد .. كنت أعتبر هذه العين ملكى أنا ، فأنا الذى اكتشفتها . وكان الجميع ، فى البلد ، يعرفون ذلك دون أى اعتراض ويقولون : آه . هذه بحيرة رينار ! .. وما كان لاحد أن يختلف اليها ، ولا حتى السيد بلومو مع ما هو معروف عنه من شغفه لاحتلال أماكن الغير ، وأرجو ألا يغضبه قولى هذا .

« كنت أمضى الى مكانى اذن كل أسبوع كما لو كنت امتلكه . وما أن أصل مساء السبت حتى أصعد أنا وزوجتى الى « دليلة » ودليلة هذه هى مركب شيدتها عند فورنيز ، وهى مركب خفيفة نشعر فيها بالامان والاطمئنان .. أقول نصعد الى دليلة ونمضى لتجهيز الطعم . وليس هناك من يعرف كيف يجهز الطعم مثلى . تسألنى كيف أجهزه ؟ لا أستطيع الرد ، فليس لهــذا أية صــلة بالحادث . لا أستطيع الرد فهذا سرى أنا . وقد سألنى عن هذا السر أكثر من مائتى شخص وعرضوا على كئوسات الخمر وأشهى

انواع المحمرات لكى يحملونى على الحديث . ولكننى لست بحاجة الى خمورهم وطعامهم ... نعم . تحايلوا على لكى يعرفوا سرى .. وليس هناك من يعرفه غير زوجتى ، وهى لن تبوح به الاخرى . اليس كذلك يا ميليا ؟

قاطعه القاضى قائلا : تكلم فى الموضوع .

استأنف المتهم قصته فقال : حسن .. حسن .. فى يوم السبت ٨ يولية أخذنا القطار فى الساعة الخامسة والدقيقة الخامسة والعشرين ، ومضينا قبيل العشاء لاعداد الطعم . وكان كل شىء يبشر بأن الجو سيكون جميلا فى اليوم التالى . وقلت لميليا : هذا جميل . سوف نستمتع غدا . وأجابتنى : هذا صحيح . ونحن لا نتبادل الحديث معا أبدا بأكثر من هذا .

ثم عدنا لتناول العشاء . كنت سعيدا وكنت ظمآنا ، وهذا سبب كل ما حدث يا سيدى القاضى ، فقد قلت لزوجتى : ان الجو جميل يا ميليا ولا ضير فى أن أجرع زجاجة من « السهارى » وهو نوع من النبيذ الابيض المعتق أطلقنا عليه هذا الاسم لان المرء اذا أفرط فى تناوله تأخذه النشوة ويجافيه النوم .

واجابتنى زوجتى : « افعل ما يحلو لك ، ولكنك ستجد نفسك مريضا فى الصباح ولن تستطيع النهوض » . وكان قولها هذا حقا وحكيما ويدل على الحرص والذكاء ، واعترف بذلك ، ولكننى لم أستطع ان أملك نفسى فشربت وأتيت على الزجاجة كلها . وهذا سبب ما حدث .

لم أستطع النوم ، وبقيت مسهدا حتى الثانية صباحا ، ولكن لم تلبث أن راحت عينى فى النوم ، وكان نوما عميقا أيقظتنى زوجتى منه فى الساعة السادسة . ووثبت من الفراش وارتديت ثيابى على عجل وأسرعنا الى دليلة . ولكن السيف كان قد سبق العذل ، فعندما وصلنا وجدت ان بعضهم قد سبقنى الى مكانى من العين ، ولم يكن هذا قد حدث منذ ثلاث سنوات . وقد بدا الامر وكأن أحدا قد سلبنى شيئا تحت سمعى وبصرى ورحت أقول « اللعنة ! اللعنة ! »

فى حين قالت زوجتى « أرايت ما فعل بك النبيذ ؟ هل أنت مسرور الآن أيها الحيوان الفظ ؟ » .

« ولم أنطق لانها لم تقل الا الحق .

« ومع ذلك فقد هبطت من دليلة ومضيت قريبا من المكان فى محاولة للحصول على ما يتبقى وأنا أقول لنفسى ان الرجل ربما لا يحصل على شيءفيمضى من حيث أتى .

« كان رجلا هزيلا قصيرا يرتدى حلة بيضاء وقبعة كبيرة من القش . وكانت ترافقه هو الآخر زوجته ، وهى امرأة بدينة كانت تجلس خلفه وتحيك الصوف .

« وتمتمت تقول وهى ترانا نجلس بجوارها : أليس هناك مكان آخر فى البحيرة ؟

« وقالت زوجتى وهى تغلى من الغضب :

ـ ان الناس الذين يعرفون آداب السلوك يستعلمون عن عادات البلد قبل أن يحتلوا الاماكن الخاصة .

« ولما لم أكن أريد اثارة المشاكل فقد قلت :

ـ اسكتى يا ميليا .. ولندعه يفعل .. لندعه يفعل . سوف نرى ما يكون .

« وكنا قد ارسينا دليلة تحت بعض الاشجار . وجلسنا على الشاطىء وبدأنا نصطاد جنبا الى جنب .

« وهنا ، يا سيدى القاضى ، يجب ان أدخل فى التفاصيل . لم تمض على جلوسنا خمس دقائق حتى اهتزت صنارة الرجل مرتين واذا به يرفعها وفى آخرها سمكة كبيرة ، وخفق قلبى وتصبب وجهى بالعرق وقالت لى ميليا : هل ترى أيها السكير ؟ .. أرايت هذه السمكة ؟

« وتظاهر الرجل بأنه لم يسمع ، وكذلك زوجته .. تلك المرأة الضخمة البدنية التى تشبه البقرة .

قاطعه القاضى للمرة الثانية فقال : حذار ، فانك تهجو مدام فلاميش ، وهى موجودة هنا .

اعتذر رينان قائلا : عفوا .. عفوا .. اننى لم املك نفسى من الانفعال .

« ولم تمض ربع ساعة حتى اصطاد سمكة اخرى لا تقل حجما عن الاولى ، وواحدة اخرى بعدها ثم سمكة رابعة بعد خمس دقائق .

« وتصاعدت الدموع الى عينى وازداد غضب زوجتى وراحت تقول : آه . يا لحظنا السيىء ! الا ترى انه يسرق سمكك ؟ الا ترى ذلك ؟ .. أنت لن تصطاد شيئا ايها السكير .. لن تصطاد شيئا على الاطلاق .

« اما أنا فقلت لنفسى : لننتظر حتى الظهر . ان هـذا الصياد الذى لا يحترم قوانين الصيد سوف يمضى لتناول الغـــداء ، وسأسترد مكانى عندئذ .. وذلك لأننى يا سيدى القاضى أتناول غدائى فى نفس المكان كل يوم أحد ، ونأتى معنا بالزاد والزواد فى دليلة .

« آه . ولكن يا للنحس ! عندما حان وقت الغداء كانت معه دجاجة مشوية ملفوفة فى جريدة . بينما كان يأكل اصـــطاد سمكة أخرى .

« وتناولت أنا وميليا كسرة من الخبز ونحن نغلى من الغضب .

« وبعد أن فرغت من تناول الطعام ، اخذت الجريدة ورحت اقرأ ، فى الظل . وانا اقرأ كل يوم أحد جريدة « جيل بلاس » فان يوم الاحد هو اليوم الذى تنشر فيه كولومبين مقالاتها ، ومن عادتى أن أغيظ مدام رينار بأن أزعم لهـا اننى أعرف كولومبين معرفة وثيقة ، وهذا ليس حقيقيا ، فأنا لم أرها ابدا . ولكن هذا لا يهم ، فانها تجيد الكتابة ثم انها تروى أشياء لا تجرؤ أكثر النساء على الخوض فيها .

« بدات اناوش زوجتى اذن ، ولكنها غضبت على الفور وقدحت عيناها شررا فلم أجد بدا من السكوت .

« وفى هذه اللحظة أقبل على الشاطىء الآخر الشاهدان اللذان تبرعا بالشهادة ، وأعنى بهما السيد لادورو والسيد دوران . وكان كل منهما يعرفنى .

« وكان الرجل قد عاود الصيد واصطاد سمكة ما أن رأيتها حتى ارتعدت حنقا وقالت زوجته : ان هذا المكان زاخر بالسمك وسنعود اليه دائما يا ديزيريه .

سرت فى بدنى قشعريرة وأنا أسمع هذا القول ، وعادت مدام رينار تقول : ما أنت برجل ! ما أنت برجل .. انما أنت جبان .

« وقلت لها عندئذ : اننى أفضل ان أعود فاننى اخشى أن أقدم على حماقة ما .

« ولكنها همست وكأنها تضع تحت انفى مكواة محمية : ما انت برجل ... هأنت تهرب الآن وتتخلى عن المكان ببساطة ... انت وايم الحق جبان .

« وتملكنى الغضب عندئذ ولكننى لم أحفل . غير ان الآخر اصطاد فى هذه اللحظة سمكة من الكبر بحيث لم أر لها مثيلا قبل ذلك . ولم تستطع زوجتى أن تسكت فراحت تقول فى صوت مرتفع :

— هذه سرقة .. أنهما يسرقان سمكنا ، وخصوصا اننا نحن الذين وضعنا الطعم . يجب أن يردا لنا ثمن الطعم على الاقل .

« وعندئذ خاطبتها المرأة البدينة قائلة : هل تعنيننا بهذا القول يا سيدتى ؟

— اننى أعنى الذين يسرقون السمك ويستفيدون من النقود التى ينفقها غيرهم لاعداد الطعم .

— أتقولين اننا لصوص سمك ؟

« وسرعان ما تراشقتا بالالفاظ . وأغلظت كل منهما للأخرى ، علا صياحهما بحيث ان الشاهدين اخذا يضحكان وقد اطربهما لمنظر وراحا يقولان :

— كفا عن هذا الصياح . انكما ستمنعان زوجيكما من الصيد .

« والواقع اننا لم نتحرك قيد أنملة ، لا أنا ولا الرجل الآخر ، وبقينا مكاننا نحدق فى الماء كأننا لم نسمع شيئا .

« ومع ذلك فقد كنا نسمع ما يدور حولنا جيدا : ما أنت الا كاذبة .. ما أنت الا عاهرة .. ما أنت الا مومس ، وهكذا وهكذا من بذيء القول الذى لا ينطق به الا السفهاء .

« وفجأة سمعت صوتا خلفى فالتفت فاذا بى أرى المراة البدينة تهجم على زوجتى وتهوى عليها بمظلتها . وتلقت ميليا ضربتين وعندئذ اشتد بها الغضب وعندما تغضب تفلت أعصابها منها . فامسكت بالمراة البدينة من شعرها وراحت تصفعها الصفعة تلو الاخرى .

« وما كنت لاتدخل يا سيدى القاضى فالنساء وما بينهن والرجال وما بينهم ولا يجب ان نتدخل ، غير ان الرجل الهزيل نهض كالشيطان وهم بأن يهجم على زوجتى . آه .. لا .. هذا لن يكون أيها الزميل . وأمسكته بيدى ولكمته مرتين ، مرة فوق أنفه والاخرى فى بطنه ، ورفع ذراعيه وترنح ووقع على ظهره فى البحيرة ، فى العين بالذات .

« وقد كان خليقا بى ان انقذه يا سيدى القاضى لو ان الوقت أسعفنى لذلك ، ولكن لسوء الحظ أن المراة البدينة تغلبت على ميليا وأوشكت أن تخنقها ، وأدركت تماما اننى لن أستطيع اسعافها وانقاذ الآخر فى نفس الوقت . ولكن لم يخطر ببالى ابدا انه سيفرق وقلت لنفسى ان حماما من الماء سوف ينعشه .

« وعلى ذلك أسرعت الى المراتين افرق بينهما . وقد نالنى ما نالنى من الكلمات والخدشات والنهشات ، صفوة القول اننى لم اتمكن من التفريق بينهما قبل خمس أو عشر دقائق . واستدرت عندئذ ولكننى لم أجد شيئا . كانت البحيرة هادئة ، وكان الرجلان ، على الشاطىء الآخر يصرخان قائلين : انقذه ... انقذه .

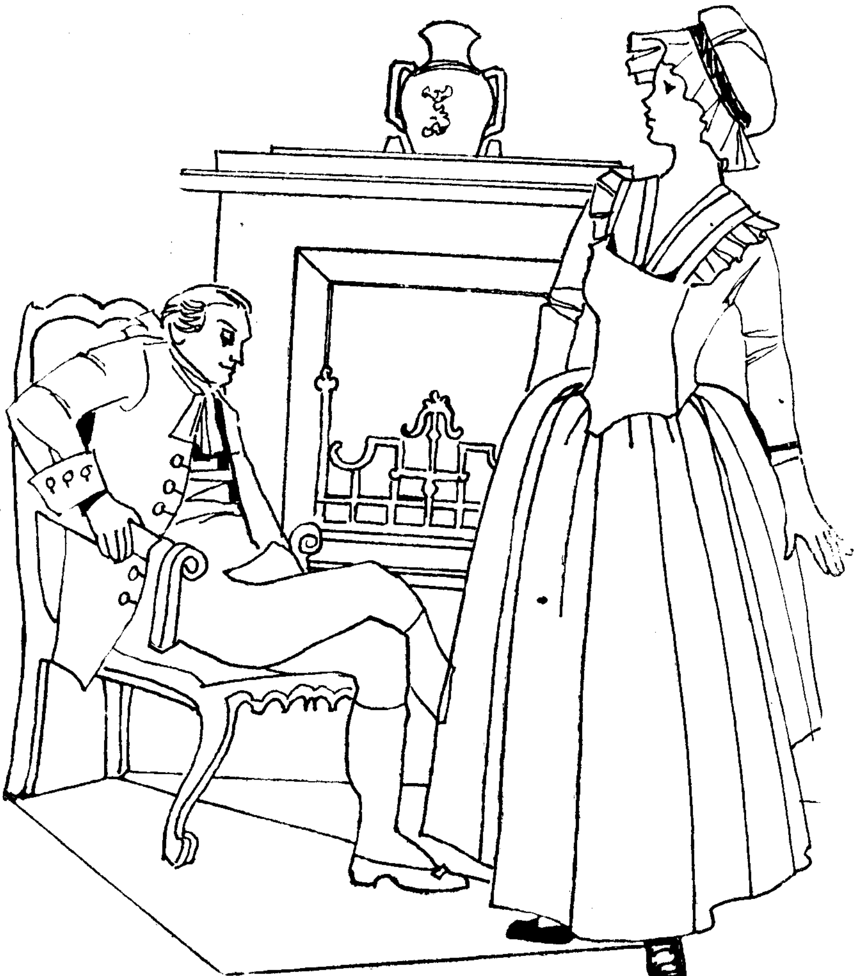
« والقول سهل ولكن العمل صعب ، فأنا لا أجيد السباحة ، بل ولا أعرف العوم .

« وأخيرا أقبل بعض الغطاسين ، ومرت ربع ساعة وهم يبحثون عنه ، ووجدوه فى قاع العين ، على عمق ثمانية أقدام كما سبق لى القول .

« هذه هى الحقائق كما حدثت وأقسم لك على ذلك . اننى برىء يا سيدى القاضى » .

واذ شهد الشهود فى نفس المعنى حكم القاضى ببراءة المتهم .

الخلاص



الخلاص

دخلت المركيزة دى ريندون مندفعة كالقنبلة وراحت تضحك قبل أن تتكلم ، وتضحك حتى سالت من عينيها الدموع ، تماما كما حدث منذ شهر عندما ذكرت لصديقتها انها خانت زوجها المركيز لكى تنتقم منه ... خانته مرة واحدة لا لشىء الا لكى تنتقم منه لانه كان شديد الغباء ، شديد الغيرة الى حد يفوق كل الحدود .

وألقت البارونة دى جرانجرى الكتاب الذى كانت تقراه فوق الاريكة ونظرت الى صديقتها انيت فى فضول وقد غلبها الضحك هى الاخرى ، واخيرا قالت :

ــ ماذا فعلت ثانية ؟

ــ أوه .. أى عزيزتى .. عزيزتى .. انه لأمر مضحك جدا . مضحك جدا .. تصورى أننى تخلصت .. تخلصت .. تخلصت .

ــ تخلصت ؟

ــ نعم ، تخلصت .

ــ من اى شىء ؟

ــ من زوجى يا عزيزتى .. تخلصت .. نجوت منه .. أصبحت حرة .. حرة .. حرة .

ــ وكيف ذلك ؟

ــ كيف ذلك ؟ .. بالطلاق طبعا .. نعم ، بالطلاق .

ــ هل حصلت على الطلاق .

ــ كلا . لم أحصل عليه بعد .. ما أغباك ! ان المرء لا يحصل على الطلاق فى ظرف ثلاث ساعات ، ولكن لدى الادلة .. الادلة .. الادلة التى تثبت انه يخوننى .. حالة تلبس .. تصورى .. حالة

تلبس ... لقد أصبح فى قبضة يدى .
ــ أوه .. قصى على ذلك .. كان يخونك اذن ،
ــ نعم .. أعنى لا .. نعم ولا .. لا ادرى ماذا أقول ، ولكن لدى الادلة وهذا يكفى .
ــ وكيف فعلت ؟
ــ كيف فعلت ؟ .. اليك ما حدث .. أوه .. اننى كنت ذكية جدا ، فمنذ ثلاثة شهور وهو لا يطاق .. كان فظا ، شديد القسوة، نابى القول ، خسيس النفس .. وقلت لنفسى ان الحال لا يمكن أن تستمر على هذا المنوال ، وانه لابد لى من الطلاق .. ولكن كيف السبيل اليه . لم يكن الامر سهلا ، وقد حاولت بشتى الطرق أن أحمله على أن يضربنى ، ولكنه لم يفعل ، وراح يعارضنى فى كل شىء من الصباح حتى المساء فيرغمنى على الخروج عندما أحب البقاء وعلى ملازمة البيت عنـــدما يحلو لى تنـــاول العشـــاء فى الخارج ، وأحال حياتى جحيما من أول الاسبوع حتى آخره ، ولكنه لم يضربنى قط .

وحاولت عندئذ أن أعرف ان كان قد اتخذ له عشيقة واكتشفت ان له واحدة ، ولكنه كان شديد الحذر والحيطة فى معاشرته لها ، فلم أتمكن من ضبطهما معا . ولكن لا يمكن أن تخمنى ماذا فعلت .
ــ اننى لا أحسن التخمين .
ــ لن تستطيعى ذلك أبدا على كل حال .. لقد طلبت من أخى أن يأتينى بصورة تلك الفتاة .
ــ أتعنين عشيقة زوجك ؟
ــ نعم . وهذه الصورة كلفت أخى خمسة عشر دينارا مقابل ليلة واحدة من الساعة السابعة مساء حتى منتصف الليل بما فى ذلك العشاء ، أى ثلاثة دينارات نظير الساعة الواحدة ، وقد حصل على الصورة ضمن الصفقة .
ــ يبدو لى أنه كان فى مقدوره الحصول عليها بأقل من ذلك لو أنه لجأ الى حيلة ما ومن غير ان .. من غير ان يضطر الى الحصول على الاصل فى نفس الوقت .

ـ أوه ... ولكنها جميلة ، ولم يجد جاك أية غضاضة فى ذلك ، ثم اننى كنت بحاجة الى تفاصيل دقيقة عن هذه الفتاة .. تفاصيل طبيعية عن قامتها وصدرها وهيئتها وكل ما له علاقة بها .

ـ أننى لا أفهم شيئا .

ـ سوف تفهمين . عندما عرفت كل ما كنت بحاجة الى معرفته قصدت .. ماذا أقول .. قصدت أحد رجال الاعمـــال .. انك تفهمين ما أعنى طبعا .. أحد هؤلاء الرجال الذين يقومون بكل نوع من الاعمال مهما تكن طبيعته .. وكلاء دعاية وتشهير .. انك لا شك تفهمين ..

ـ نعم ، تقريبا .. وماذا قلت له ؟

ـ قلت له اننى بحاجة الى خادمة شبيهة بصاحبة هذه الصورة، واننى أريدها جميلة وأنيقة وذكية ونظيفة ، واننى سأدفع لهـــا ما تريد حتى ولو أدى الامر الى أن أدفع عشرة آلاف فرنك ، واننى لن أحتاج اليها لاكثر من ثلاثة شهور . وبانت الدهشة على ملامح الرجل وسألنى :

ـ هل تريد سيدتى فتاة شريفة ؟

فأجبته وقد اصطبغ وجهى خجلا : طبعا .

وسألنى : ومن الناحية الاخلاقية ؟

ولم أجرؤ عندئذ على الرد واكتفيت بأن أومأت له برأسى سلبا ، ولكننى لم أكد أفعل حتى لمحت الشك فى عينيه فصحت وقد أفلت زمامى منى : أوه ، سيدى ... انك لم تفهمنى .. اننى أريدها لزوجى الذى يخوننى .. يخوننى بعيدا عن البيت .. وأريد أن يفعل ذلك فى بيتى لكى أباغته .

وعندئذ أخذ الرجل يضحك ، وأدركت من نظراته اننى استعدت اعتبارى ، بل انه أدرك اننى امرأة واسعة الحيلة واننى لأراهن انه ود فى تلك اللحظة أن يصافحنى .

وقال : بعد ثمانية أيام سآتيك بما تريدين وسأستبدلها بغيرها اذا شئت . واننى واثق من النجاح ولن أتقاضى شيئا حتى أفلح .

اذن فهذه هى صورة عشيقة زوجك .

ـ نعم يا سيدى .

ـ انها امرأة جميلة .. وان كانت نحيفة .. وما هو نوع العطر ؟

فتمتمت غير فاهمة : عطر ؟ .. ماذا تعنى ؟

فابتسم وأجاب : نعم يا سيدتى . ان العطر ضرورى لاغراء الرجل ، فهو يثير فيه ذكريات كامنة تدفعه الى العمل ثم انه يخلق اضطرابات غامضة لا تلبث أن تتباور فى ذهنه وتثير انفعاله وتذكره بملذاته . ويجب أن تعرفى كذلك اذا كان من عادة زوجك أن يتناول العشاء مع هذه السيدة ، لانه يمكنك فى هذه الحالة ان تقدمى اليه نفس الاطبـــاق التى يحبها فى الليلة التى تنوين مفاجأته فيها .. أوه ، أوه .. انه فى قبضة يدنا يا سيدتى ، فى قبضة يدنا ..

وانصرفت من لدنه بادية الغبطـــة اذ وفقت الى رجل شديد الذكاء .

***

وبعد ثلاثة أيام جاءتنى فتاة طويلة القامة سمراء ، على قدر كبير من الجمال تنطق عيناها بالخفر والجرأة فى نفس الوقت . وأدركت على الفور انها تليق بالمهمة التى أريدها من أجلها . ولما كنت لا أدرى حقيقة أمرها فقد استخدمت لفظ الآنسة فى مخاطبتى لها ولكنها أسرعت تقول :

ـ أوه .. فى مقدور سيدتى ان تدعونى روز .

وبدأنا الحديث فقلت لها : حسنا يا روز .. هل تعرفين لمــاذا استقدمتك ؟

ـ أعتقد ذلك يا سيدتى .

ـ حسنا يا ابنتى ... ألا يزعجك هذا الامر ؟

ـ كلا يا سيدتى .... فهذا هو الطلاق الثامن الذى أتسبب فيه .. لقد تعودت على ذلك .

ـ حسنا اذن .. وهل يستغرق ذلك وقتا طويلا ؟

ـ أوه يا سيدتى .. ان ذلك رهن بمزاج سيدى . وسوف أستطيع أن أخبرك بالتدقيق بعد أن انفرد به خمس دقائق .

ـ سوف ترينه بعد قليل يا ابنتى .. ولكننى أحب أن تعرفى انه غير وسيم .

ـ لا أهمية لهذا يا سيدتى .. فقد اهتممت قبله برجال على نصيب وافر من القبح والدمامة . ولكن هل يمكننى أن أعرف اذا كانت سيدتى قد عرفت نوع العطر ؟

ـ نعم يا روز .. انه عطر الفرفين .

ـ هذا أفضل ، فاننى أحب هذا العطر كثيرا .. أيمكن لسيدتى أن تخبرنى ان كانت عشيقة السيد ترتدى ثيابا داخلية من الحرير .

ـ كلا يا ابنتى .. انها ترتدى ثيابا من الباتستة والدانتللا .

ـ أوه ، انها من علية القوم اذن ، فان الثياب الحريرية أصبح أمرها شائعا هذه الايام .

ـ هذا صحيح .

ـ حسنا يا سيدتى . سأبدأ العمل فورا .

وبدأت عملها على الفور فعلا ، كما لو كانت تفعل فى حياتها غير هذا العمل .

وبعد ساعة أقبل زوجى ، ولم ترفع روز نظرها اليه ، ولكنه رفع هو نظره اليها .. فقد كانت رائحة الفرفين تفوح منها ... وبعد خمس دقائق انصرفت .

وسألنى على الفور :

ـ من هذه الفتاة ؟

ـ ولكن ... هى وصيفتى الجديدة .

ـ أين عثرت عليها .

ـ أرسلتها لى البارونة دى جرانجرى بعد ان استعلمت عنها .

ـ أوه ... انها جميلة .

ـ حقا ؟

ـ طبعا ... أعنى كخادمة .

واغتبطت بذلك فقد أحسست أن الطعم قد شبك .

وفى نفس الليلة قالت لى روز : أستطيع الآن أن أعد سيدتى

بأن الامر لن يستغرق منى أكثر من خمسة عشر يوما .. فان السيد سهل الانقياد .

ـ آه . هل حاولت اذن ؟

ـ كلا سيدتى . سألنى عن اسمى فحسب ... لكى يسمع رنة صوتى .

ـ حسنا جدا يا عزيزتى روز ... عجلى بقدر ما تستطيعين .

ـ لا تخشى شيئا يا سيدتى .. لن أقاوم الا بما تمليه الضرورة حفظا لقدرى ومكانتى .

وبعد ثمانية أيام لم يعد زوجى يخرج كسابق العهد به وأصبحت أراه يحوم فى البيت بعد الظهر ، وأغرب ما فى الامر انه لم يعد يعارضنى فى شىء ، ولم يحاول ان يمنعنى من الخروج ، وبهذا أصبحت أقضى طوال اليوم فى الخارج لكى أترك له مطلق الحرية .

وفى اليوم التاسع ، بينما كانت روز تنضو عنى ثيابى قالت فى شىء من الخجل :

ـ لقد وقع الامر يا سيدتى .. هذا الصباح .

والحق ان الدهشة استولت على شيئا ما وتملكنى الانفعال لا لشىء الا ازاء الطريقة التى ذكرت بها روز ان الامر قد وقع ، وتمتمت أقول :

ـ وهل .. هل كان ذلك على ما يرام ؟

ـ أوه ، على أتم ما يرام يا سيدتى ، فمنذ ثلاثة أيام وهو يلاحقنى ويضيق على ولكننى لم أشأ الرضوخ بسهولة ... والآن ، ما عليك الا أن تقولى لى متى ترغبين فى ضبطه متلبسا بالامر .

ـ نعم يا ابنتى .. ما رأيك فى يوم الخميس المقبل ؟

ـ كما تشائين يا سيدتى .. لن أمكنه من نفسى حتى ذلك اليوم لكى يبرح به الشوق .

ـ هل أنت واثقة ؟

ـ كل الثقة يا سيدتى . سوف أثير رغبته بحيث يصبح طوع بنانى فى الساعة التى تريدها سيدتى .

— ليكن ذلك فى الساعة الخامسة يا عزيزتى روز .
— حسنا يا سيدتى .. ولكن فى أى مكان ؟
— فى ... فى مخدعى .
— حسنا يا سيدتى .

ولعلك تدركين الآن ما حدث يا عزيزتى ، فقد ذهبت أولا وأتيت بأبى وأمى ثم بعمى ، الرئيس دورفينال والقاضى رابليه ، صديق زوجى . ولم أطلعهم على شىء طبعا وجعلتهم يتقدمون على أطراف أصابعهم حتى باب مخدعى . وانتظرت حتى دقت الساعة الخامسة ... أوه ، لشد ما أخذ قلبى يدق عندئذ .. وكنت قد استدعيت البواب هو الآخر لكى يكون شاهدا معهم .. وبعد الدقة الخامسة فتحت الباب على مصراعيه فجأة .. آه .. آه .. يا لهذا المنظر ! .. كانا راقدين فوق الفراش عاريين .. آه .. آه .. يا عزيزتى .. لو أنك رأيت سحنته فى تلك اللحظة ! .. لقد التفت الينا ، ذلك الغبى .. كان منظره يثير الضحك حقا فرحت أضحك ، وأضحك .. أما أبى فقد تميز غيظا واندفع نحوه يريد ضربه ، غير أن البواب ، بحكم عمله ، تدخل وعاون زوجى على ارتداء ثيابه أمامنا .. أمامنا جميعا . يا لهذا المنظر المضحك !

أما روز فكانت ممثلة قديرة .. متمكنة .. فأخذت تبكى ، وأجادت دورها وأحسنت البكاء .. انها فتاة نادرة حقا .. اذا احتجت اليها فما عليك الا أن تخبرينى .

« وهأنذا أمامك .. لقد أتيت لتوى أقص عليك ما حدث ... اننى الآن حرة .. يحيا الطلاق .

وراحت المركيزة ترقص فى وسط الغرفة فى حين تمتمت البارونة فى تفكير واستياء :

— لماذا لم تستدعينى لكى أرى ذلك ؟

كلوشيت



كلوشيت

ما أعجب تلك الذكريات القديمة التى تلح علينا ولا نستطيع منها خلاصا !

والذكرى التى أنا بصددها الآن قديمة جدا ولا أدرى كيف بقيت فى ذهنى بهذه الحدة وهذا الوضوح . وقد شاهدت بعدها أحداثا جسيمة وكوارث أشد هولا وفظاظة ولكن الشىء الوحيد الذى يثير دهشتى هو أنه لا يمر يوم .. يوم واحد من غير ان ارى صورة الأم كلوشيت أمام عينى .. صورتها كما عرفتها فيما سبق ، منذ وقت سحيق .. حين كنت لا أزال فى العاشرة أو الثانية عشرة من عمرى .

والأم كلوشيت خياطة عجـوز ، كانت تأتى الى بيتنا مرة كل اسبوع ، كل يوم ثلاثاء لترفو ثيابنا وتصلح ما يجب اصلاحه منها . وكان أبواى يقيمان فى احدى هذه البيوت الريفية التى اصطلح الناس على تسميتها قصورا بينما هى فى الواقع ليست أكثر من بيوت عادية ذات أسطح مدببة تجمع بينها أربع أو خمس مزارع .

والقرية ، وهى قرية كبيرة ، أو بالاحرى مركز ، تبدو على بعد بضع مئات من الامتار ، محشورة حول الكنيسة ، وهى كنيسة مبنية بالطوب الاحمر الذى تغير لونه بمضى الوقت وأصبح أسود .

كانت الأم كلوشيت تأتى الى البيت كل يوم ثلاثاء اذن ، فيما بين السادسة والنصف والسابعة صباحا وتصعد رأسا الى غرفة الثياب وتباشر عملها على الفور .

كانت امرأة طويلة القـامة نحيلة الجسم ذات لحية أو بوجـه اصح ، مشعرة ينبت الشعر فى كل جزء من أجزاء وجهها بشكل

عجيب يدعو الى الدهشة وتبدو بخصلات شعرها الطويلة المجعدة كما لو أن مجنونا قد زرعها فبدت أشبه برجل يرتدى ثياب الرجال .

كان الشعر ينبت فوق أنفها وتحته وحوله وفوق ذقنها ووجنتيها . وكان حاجباها كثيفين وطويلين بصورة ملحوظة ولونهما أشهب يبدوان كشارب نما فى هذا المكان خطأ .

وكانت تعرج ، لا كما يعرج العاجز الكسيح ولكن كما تتأرجح السفينة الراسية على الشاطىء ، وحين تميل بجسمها الكبير المعروق المموج على ساقها السليمة ، كانت تبدو كما او كانت تهتم بأن تتسلق موجة هائلة ثم تغطس فجأة كما لو كانت ستختفى فى هوة وتغوص فى الارض . وكانت مشيتها تعيد الى ذهنى صورة العاصفة ، لانها كانت تتأرجح طول الوقت . وكانت تغطى رأسها دائما بقبعة كبيرة بيضاء ، ذات أشرطة تتدلى خلف ظهرها ويبدو كأنها تقطع الافق من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال فى كل حركة من حركاتها .

وكنت أحب هذه المرأة حبا شديدا ، فلا أكاد أصحو من نومى حتى أهرع الى غرفة الثياب حيث أجدها جالسة ترفو قطعة من الثياب ، واضعة قدميها فوق سجادة صغيرة وما أن ترانى حتى ترغمنى على أن آخذ سجادة صغيرة وان أجلس فوقها حتى لا أصاب بالبرد فى مثل هذه الغرفة الكبيرة الفسيحة الباردة التى تقع تحت السطح مباشرة . وكانت تقول :

– ان البرد يمتص الدم من العروق .

وكانت تحكى لى قصصا وحكايات وهى تعالج الابرة بأصابعها الطويلة المعوجة التى لا تكف عن الحركة والنشاط . وكانت عيناها تبدوان خلف نظارتها السميكة ذات الزجاج المكبر التى تضطر الى لبسها بعد أن تقدمت بها السن وضعف نظرها . كانتا تبدوان لى كبيرتين وعميقتين ومزدوجتين .

وكانت تعرف بقدر ما أستطيع أن أذكر الكثير من القصص التى

ترويها لى والتى تثير قلبى الصغير . وكانت تملك روحا عالية يندر أن تتصف بها امرأة مسكينة مثلها . كانت تضم بين جوانحها قلبا كبيرا ونفسا نبيلة ، وكانت تروى لى الاحداث التى تقع فى المركز .. فهذه بقرة هربت من الاسطبل وعثروا عليها ذات صباح أمام طاحونة بروسبير ماليه وهى ترنو الى الاجنحة الخشبية وهى تدور ... وهذه قصة بيضة دجاجة عثروا عليها فى برج الكنيسة ولا يستطيع أحد أن يفهم أى حيوان باضها فى ذلك المكان ، وهذه قصة كلب جان بيلاس الذى قطع عشرة أميال ليسترد سروال سيده الذى سرقه أحد المارة من فوق الحبل الذى اضطر سيده أن ينشره عليه بعد أن بلله المطر وهو فى العراء .. كانت تسرد على هذه الاحداث الساذجة بطريقة تجعلها ترتسم فى ذهنى فى اطار من المآسى التى لا يمكن أن ينساها الانسان ، وفى اطار من الشاعرية والغموض ، وكانت القصص الغريبة التى يبتدعها الشعراء وترويها لى أمى فى المساء لا ترقى فى حلاوتها وسحرها وروعتها الى القصص التى كانت ترويها لى هذه القروية .

***

وذات يوم ، وهو يوم ثلاثاء ، وكنت قد قضيت الصباح برفقة الأم كوشيت ، أصغى الى أحاديثها وأردت أن أعود اليها فى وسط النهار ، بعد أن جمعت بعض ثمار البندق برفقة أحد الخدم ، فى الغابة المجاورة ، خلف مزرعة نوارييه . وانى أذكر ذلك بكل الوضوح كما لو كان الامر قد حدث بالامس القريب .

فما أن فتحت باب غرفة الثياب حتى رأيت الخياطة العجوز طريحة فوق الارض بجوار مقعدها ووجهها الى الارض وهى باسطة ذراعيها والابرة لا تزال فى احدى يديها ، بينما فى يدها الاخرى قميص من قمصانى ، واحدى ساقيها ، ولا ريب أنها الساق الاكبر ملفوفة فى جورب أزرق وممددة تحت مقعدها ، والنظارة تبرق بجوار الحائط وقد تدحرجت بعيدا عنها .

واندفعت خارجا وأنا أطلق الصيحات الحادة . وأسرعوا اليها ، وعلمت بعد بضع دقائق ان الأم كلوشيت قد فارقت الحياة .

ولن أستطيع أن أصف ذلك الانفعال الشديد والرهيب والمخيف الذى حل بقلبى الصغير ، ولكننى هبطت فى خطى بطيئة الى حجرة الصالون ومضيت الى ركن مظلم واختبأت فى جوف مقعد كبير وجثوت على ركبتى لكى أبكى . وبقيت فى مكانى هذا مدة طويلة بدون شك لأن الليل أقبل على وأنا فيه .

وفجأة دخل بعضهم ومعه مصباح ، ولم يرنى أحد . وسمعت أبى وأمى يتحدثان مع رجل عرفت من صوته أنه الطبيب ، وكانوا قد أرسلوا فى طلبه . وراح يذكر لهم أسباب الوفاة فى عبارات لم أفهم منها شيئا على كل حال . وعرض عليه أبى كأسا من الشراب وبعض البسكويت فلم يرفض وجلس معهما .

واستطرد فى حديثه ، وعلق هذا الحدث فى ذهنى ، وسيظل عالقا به حتى أموت ، وأظن اننى أستطيع أن أنقل قصته فيما يلى كلمة كلمة تقريبا .

قال : آه ! .. يا للمرأة المسكينة ! كانت أول عميلة لى فى هذه القرية ، فقد انكسرت ســـاقها فى نفس اليوم الذى قدمت فيه للاقامة هنا ، ولم أكن قد وجدت متسعا من الوقت لكى أغسل يدى بعد أن هبطت من العربة التى أقلتنى حين جاءوا يطلبوننى على عجل لأمر شديد الخطورة .

كانت فى الســـابعة عشرة من عمرها فى ذلك الوقت ، وكانت جميلة ، جميلة جدا .. جدا .. فهل تصدقون ذلك ؟ .. أما قصتها فلم أروها لأحد اطلاقا ولم يعرفها غيرى أنا ورجل آخر لم يعد موجودا فى هذه البلد . أما الآن وقد ماتت فاننى أستطيع أن أتحلل من كتمانها .

« فى ذلك الوقت كان قد أقبل مدرس شاب للاقامة فى المركز ، وهو شاب وسيم طويل القـــامة كالضباط راحت كل الفتيات تلاحقنه ويتوددون اليه . أما هو فكان يتجاهلهن ، وأظن أنه كان يفعل ذلك خــوفا من رئيسه ، ناظر المدرسة ، الأب جرابو ، فقد كان لا يستريح اليه أحد .

وكانت هورتنس الجميلة التى ماتت اليوم ببيتكم والتى عرفت باسم كلوشيت « أى العرجاء » بعد الحادثة التى وقعت لها تعمل فى ذلك الوقت خياطة لدى الأب جرابو . وفضل المدرس الشاب هذه الفتاة الجميلة التى طاب لها أن يقع اختياره عليها دون غيرها وهو الفتى الوسيم ، ومهما يكن من أمر فقد أحبته وواعدته على اللقاء فى مخزن الغلال بالمدرسة بعد أن تنتهى من حياكتها فى آخر النهار .

وبعد أن فرغت من عملها تظاهرت بالعودة الى بيتها ولكنها بدلا من أن تهبط الدرج فى طريقها الى الخارج صعدت الى الطابق الثانى ومضت الى مخزن من الغلال واختبأت بين أكوام التبن فى انتظار حبيبها . وسرعان ما لحق بها وبدأ يطارحها الغرام حين فتح الباب للمرة الثانية وظهر ناظر المدرسة وقال متسائلا :

— ماذا تفعل هنا يا سيجسبيرت ؟

وأخذ الشاب على غرة وأحس بأن أمره سينكشف ، واستولى عليه الخوف فأجاب فى غباء :

— اننى أتيت لكى أستريح فوق أكوام التبن .

وكان المخـــزن كبيرا جدا وفسيحا وشديد العتمـة ، ودفـع سيجسبيرت بالفتاة المفزوعة بعيدا عنه وهو يقول :

— ابتعدى .. اختبئى .. سأفقد وظيفتى .. اختبئى ..

وسمع الناظر همسه فقال : انت لست وحدك اذن ؟

— بل أنا وحدى يا مسيو جرابو .

— كلا ، فأنت تتحدث مع أحد .

— أقسم لك اننى وحدى .

فقال الشيخ العجوز : هذا ما سوف نتحقق منه .

وأغلق الباب وأدار المفتاح من الخارج وهبط ليبحث عن مصباح .

وكان الشاب جبانا كما لا ريب قد أدركتما ، والدنيا تزخر بمن هم على شـــاكلته ، فضاع لبه وراح يقول لهـــا وقد تملكه الحنق فجأة : « ولكن اختبئى .. لا يجب أن يجدك هنا .. انك ستتسببين

فى فقدانى وظيفتى وفى حرمانى من القوت طوال حياتى . ستحطمين مستقبلى .. اختبئى .. بالله .

وسمع المفتاح فى هذه اللحظة وهو يدور فى القفل من جديد .

وأسرعت هورتنس الى طاقة المخزن ، وكانت تؤدى الى الشارع وفتحتهـــا على عجل ثم قالت فى صوت خافت ينطق بالعـــزم والاصرار :

ـ تعال واحملنى بعد أن يذهب .

وقفزت من الطاقة .

ولم يجد الأب جرابو أحدا ، وهبط وقد استبدت به الدهشة ؟

وبعد ربع ساعة جاءنى مسيو سيجسبيرت وروى لى قصته ، وكانت الفتاة قد بقيت بجوار الجدار وهى لا تستطيع الحركة فقد وقعت من الطابق الثانى . وكان المطر ينهمر مدرارا فحملت الفتاة التعسة الى بيتى . وكانت ساقها اليسرى قد أصيبت بكسر فى ثلاثة مواضع ، وبرز العظم من اللحم . ولم تندم واكتفت بأن قالت فى استسلام :

ـ اننى لقيت جزائى وهو جزاء حق .

واستدعيت مساعدى ثم أرسلت فى طلب أهل الفتاة وزعمت لهم ان عربة مسرعة صدمتها وكسرت ساقها أمام بيتى .

وصدقنى الجميع . وطفق رجال البوليس يبحثون عن مرتكب هذه الحادثة المزعومة طوال شهر عبثا .

هذه هى قصة الأم كلوشيت ، وأرى ان هذه المرأة كانت بطلة وانها من تلك النساء اللاتى لا يترددن عن التضحية بأنفسهن والاقدام على أعمال البطولة .

وقد كان هذا هو حبها الوحيد ، وماتت عذراء ، شهيدة ، وهى امرأة كبيرة الروح نبيلة النفس ، ولو لم أكن شديد الاعجاب بهـــا لما سردت عليكم قصتها هذه ، وهى قصة لم أشأ أن أذكرها لأى أحد طوال حياتها ، ولا ريب انكما تدركان السبب فى كتمانى هذا حتى اليوم .

وسكت الطبيب ، وأخذت أمى تبكى ، ونطق أبى ببضع كلمات لم أسمعها جيدا ثم غادروا الغرفة .

وبقيت مكانى جاثيا على ركبتى فوق المقعد الكبير وأنا أذرف الدمع .. ولم ألبث أن سمعت جلبة غريبة ووقع أقدام وارتطام شىء بالسلم فأدركت انهم كانوا ينقلون جثة كلوشيت .

الإشـــــارة



الاشارة

كانت المركيزة الشابة دى ريندون لا تزال نائمة فى غرفتها المغلقة والمعطرة ، فى فراشها الوثير المنخفض ، تحت الاغطية المصنوعة من الباتيستا الخفيفة التى تشبه الدانتللا الرقيقة الحانية المهدهدة كالقبلة ... كانت راقدة وحدها تغط فى نوم عميق سعيد ... ذلك النوم العميق السعيد الذى لم تعرفه الا بعد أن حصلت على الطلاق .

وأيقظتها أصوات تتناقش فى حدة ، وفى صــوت مرتفع ، فى الصالون الصغير الازرق ، وعرفت صوت صديقتها العزيزة البارونة دى جرانجرى وهى تتجادل مع وصيفتها التى تصر على منعها من الدخول .

ونهضت المركيزة الشابة عندئذ ورفعت المزلاج وأدارت المفتاح ، وفتحت الباب ثم أطلت برأسها الشقراء التى تختفى فى سحابة من الشعر وقالت :

— ما الذى دفعك الى المجىء هكذا مبكرة ؟ .. ان الساعة لم تتجاوز التاسعة بعد .

وكانت البارونة الشابة ممتقعة اللون الى حد كبير ويبدو عليها الانفعال الشديد وأجابت فى صوت محموم :

— يجب أن أتحدث اليك . لقد وقع لى شىء فظيع .

— ادخلى يا عزيزتى .

ودخلت . وتعانقت المرأتان ، وعادت المركيزة الشابة فاستلقت فوق الفراش ، فى حين أخذت الوصيفة تفتح النوافذ حتى يتجدد الهواء ويدخل النور ، وعندما انصرفت أخيرا استطردت مدام ريندون قائلة :

ـ والآن ، تكلمى .

وراحت مدام دى جرانجرى تبكى وتذرف الدموع الصافية التى تزيد من فتنة النساء وسحرهن وتمتمت تقول من غير ان تجفف دموعها حتى لا يزيد احمرارها :

ـ أوه يا عزيزتى . ان ما حدث أمر فظيع .. فظيع جدا .. لم يغمض لى جفن طوال الليل . لم أرقد دقيقـــة واحدة .. هــل تسمعين ؟ ولا دقيقة واحدة .. ضعى يدك على قلبى فترى كيف يخفق .

وأخذت يد صديقتها وألقتها على صدرها ، فوق هذا الغلاف المستدير الذى يضم قلب النساء ، ذلك القلب الذى غالبا ما يكفى الرجال ويمنعهم عن البحث عن أى شىء آخر تحته .. وكان قلبها يخفق بشدة فى الواقع . واستطردت :

ـ حدث لى هذا أمس أثناء النهار .. فى نحو الساعة الرابعة .. أو الرابعة والنصف .. لا أدرى على وجه التحديد .. وانت تعرفين مسكنى جيدا وتعرفين ان الصالون الصغير الذى أجلس فيه دائما يطل على شارع سان لازار فى الطابق الاول . وان من عادتى ان أقف أمام النافذة وأنظر الى المارة .. فالمنظر جميل فى ذلك الحى الذى أقيم فيه .. والمحطة تجعل هذا الحى يعج بالحـــركة والحيوية .. صفوة القـــول ، اننى أحب الوقوف أمام النافذة والتطلع الى ما يدور أمامى . كنت جالسة مساء أمس اذن فوق الكرسى المنخفض الموضوع أمام النافذة . وكانت النافذة مفتوحة ، ولم أكن أفكر فى شىء . كنت أقنع باستنشاق الهواء الازرق النقى ... ولعلك تذكرين ان الطقس كان جميلا أمس .

وفجأة رأيت ، فى الناحية الاخرى من الشارع ، امرأة واقفة أمام النافذة .. امرأة ترتدى ثوبا أحمر . أما أنا فكنت ارتدى ثوبا بنفسجيا ، ولم أكن أعرف هذه المرأة ، فهى ساكنة جديدة أقبلت منذ شهر ، ولما كان الجو ممطرا فى ذلك الشهر فلم يسبق لى ان رأيتهـــا قبل ذلك اليوم . ولكن ما ان وقعت عينى عليهـــا حتى

أدركت أنها غانية من الغانيات ، وقد تقززت جدا فى بادىء الامر وأحسست ان مشاعرى قد صدمت وأنا أرى هذه الفتاة تقف أمام النافذة بمسكنها كما أفعل أنا ، ولكن لم ألبث ان سرى عنى شيئا فشيئا وراق لى أن أفحصها . كانت متكئة بمرفقيها فوق اطار النافذة تنظر الى الرجال الذى يمرون بها وينظرون هم اليها .. جميعهم تقريبا . وبدا لى كأن شيئا ما يجذبهم اليهــا من بعيد ويدفعهم الى التطلع اليها وهم يقتربون منها ، ويشـــمونها كما تشم الـكلاب رائحة الصيد ، لانهم كانوا يرفعون رأسهم فجأة ويلقون اليها نظرة سريعة .. نظرة غريبة .. وكانت نظرتها هى اليهم كأنها تقول « هل تريد » .. وكانت نظرتهم اليها تعنى « لا وقت لدى » تارة أو « اننى مفلس » تارة أخرى .. أو « ادخلى أيتهــا الشقية » . وكانت تلك النظرة الاخيرة هى نظرة رب الاسرة الحريص على شرف بناته .

لقد كان ذلك غريبا ، ولا يمكن ان تتصورى مدى غرابته وأنا أراها تقوم بلعبتها أو بمعنى أصح بمهنتها .

وكانت تغلق النافذة فجأة فى بعض الاحيان ، وكنت لا ألبث أن أرى رجلا يسير الى الباب فأفهم أنها اصطادته كما يصطاد الصياد سمكة بالصنارة ، وكنت أنظر الى ساعتى عندئذ لكى أرى كم من الوقت يمكثان .. وكانا يمكثان عادة ما بين اثنتى عشرة دقيقة وعشرين دقيقة على الاكثر .. والحق أنها أثارتنى ، تلك المرأة التى كانت أشبه بالعنكبوت الذى يطبق على فريسته ... ثم أنها لم تكن دميمة والحق يقال .

وسألت نفسى : كيف تفعل هذه الفتاة لكى يفهمها الناس هكذا بمثل هذه السرعة كل هذا الفهم .. هل تضيف الى نظرتهــا اشارة من رأسها أو حركة من يدها ؟

وأخذت نظارتى المكبرة التى استخدمها فى المسرح لكى أتحقق من لعبتها . أوه ... كانت لعبة بسيطة جدا .. غمزة من العين فى بادىء الامر ثم ابتسامة ، ثم حركة يسيرة من رأسها تعنى : هل

تأتى ؟ .. ولكنها كانت حركة من الرقة والغموض والكتمان بحيث تدل على أنها قضت فترة طويلة من الوقت حتى أتقنتها كل هـذا الاتقان .

وأخذت أسائل نفسى « هل أستطيع أنا ان أقوم بمثل هذه الحركة من الاسفل الى الاعلى ، وبمثل هذه الجرأة والرقة ، لان حركتها والحق يقال كانت رقيقة جدا » .

ومضيت الى المرآة ورحت أجرب ذلك ، ولم ألبث أن أتقنت تلك الحركة أكثر منها بكثير ، وأخذنى الطرب وعدت الى مكانى أمام النافذة .

ولكن الفتاة المسكينة لم تفلح فى اصطياد أحد بعد ذلك .. والحق أن الحظ كان قد تجنبها .. وليس هناك أفظع من أن تضطر المرأة الى أن تكسب قوتها بمثل هذه الوسيلة .. انه لأمر فظيع حقا ولكنه أدعى الى التسلية فى نفس الوقت ، فان بعض الرجال الذى تلتقى بهم المرأة هكذا لا بأس بهم على الاطلاق .

كان كل الرجال يمرون فوق رصيفى فى ذلك الوقت ، ولم يعد أحد منهم يمر ببيتها ، فقد تحولت الشمس .. كانوا يمرون أمامى الواحد خلف الآخر بعضهم شباب وبعضهم كهـول ، فيهم الاشقر والاسمر والاشهب .

رأيت فيهم رجالا ظرفاء .. ظرفاء جدا يا عزيزتى .. أحسن وأظرف من زوجى بكثير ومن زوجك كذلك .. أعنى زوجك السابق، فأنت قد حصلت على الطلاق .. وتستطيعين الاختيار الآن .

ورحت أقول لنفسى : لو أننى أشرت لهم فهل يفهمون اشارتى أنا ، وأنا امرأة شريفة ؟ .. ولم ألبث ان استبدت بى رغبة المرأة التى لا تهدأ .. رغبة جامحة من تلك الرغبات التى لا يستطيع الانسان مقاومتها .. واننى أحس فى بعض الاوقات بمثل هذه الرغبة .. قولى لى ، هل هذا غباء ؟ .. أظن ان لنا نحن النساء أرواح قرود ، وقد أكدوا لى على كل حال (وأظن ان الذى قال لى هذا القول طبيب) ان مخ القرد يشبه كثيرا مخ المرأة ، فاننا نحب

دائما ان نقلد غيرنا .. فنحن نقلد أزواجنا حين نحبهم فى الشهر الاول من الزواج ثم نقلد عشاقنا بعـــد ذلك ولا نلبث ان نقـلد صديقاتنا والقساوسة الذين يتلقون اعترافاتنا فنأخذ طريقتهم فى التفكير وطريقتهم فى الحديث وأسلوبهم فى الـكلام وحركاتهم وكل شىء .. وهذا غباء .

مهما يكن من أمر فاننى حين تأخذنى الرغبة فى شىء فاننى أقوم بتنفيذ ما أريد على الفور .

قلت لنفسى اذن : « سوف أرى .. سأجرب فى رجل .. رجل واحد لـكى أرى ما يمكن أن يحـدث لى .. لا شىء .. سنتبادل ابتسامة وهذا كل شىء ولن أراه بعد ذلك أبدا .. وحتى اذا رأيته فهو لن يعرفنى ، واذا عرفنى فسوف أنكر طبعا » .

وبدأت أختار اذن .. أردت رجلا وسيما جدا .. وفجأة رأيت رجلا طويل القامة أشقر اللون .. كان شـــابا وسـيما .. جدا .. وأنا أحب الرجال ذوى اللون الاشقر كما تعرفين .

ونظرت اليه ونظر الى وابتسمت له وابتسم لى . وأتيت عندئذ بالاشارة .. أوه ، لم أكن أقوم بها حتى أومأ برأسه ان نعم ، ولم يلبث أن أسرع الى الباب العمومى للبيت .

ولا يمكن أن تتصورى ما حدث فى هذه اللحظة . ظننت اننى سأجن .. أوه استولى على خوف شديد .. وكيف لا أخاف وهو سيتحدث مع الخدم ، ومع جوزيف ، وأنت تعرفين مبلغ اخلاصه لزوجى . سيظن جوزيف طبعا اننى أعرف هـذا السيد منذ مدة طويلة .

ماذا أفعل ؟ .. قولى لى .. ماذا أفعل ؟ .. سيدق الجرس بعد لحظة ، بل بعد ثانية .. ما العمل ؟ .. قولى لى .. ظننت ان أفضل شىء هو ان أسرع للقائه وان أقول له انه أخطأ وأن أتوسل اليه ان ينصرف .. ستأخذه الشفقة بامرأة .. امرأة مسكينة .. وعلى ذلك أسرعت الى الباب وفتحته فى نفس اللحظة التى هم فيها بأن يضع أصبعه على الجرس .

وتمتمت أقول وقد تملكني الجنون تماما : انصرف يا سيدى .. انصرف .. انت مخطىء .. اننى امرأة شريفة .. امرأة متزوجة .. انها غلطة .. غلطة شنيعة .. حسبتك صديق انت تشبهه شبها غريبا .. أشفق بى يا سيدى ..

ولكنه يا عزيزتى رد على ضاحكا وقال : صباح الخير يا قطتى .. لا تخافى .. اننى أعرف قصتك .. انت امرأة متزوجة ، سأعطيك دينارين اذن بدلا من دينار واحد .. ستحصلين عليهما .. هيا ، تقدمينى ..

ودفعنى ، وأغلق الباب . واذ وقفت مكانى مصعوقة ، أكاد أن أموت من الخوف قبلنى وطوقنى من خصرى وأدخلنى الصالون ، وكنت قد تركته مفتوحا ، وراح ينظر الى كل شىء كما يفعل الدلال المثمن وهتف : يا الهى ! .. ان بيتك جميل .. كل ما فيه يدل على البذخ والترف .. لابد أنك مفلسة فى هذه اللحظة لكى تمارسى عملية النافذة .

وأخذت أتوسل اليه عندئذ : أوه .. انصرف يا سيدى .. اذهب بالله .. ان زوجى سيعود .. سيعود بعد لحظة ، فهذا هو وقت عودته .. أقسم لك انك مخطىء .

ولكنه رد على فى هدوء : هيا يا جميلتى .. خل عنك ألاعيبك هذه . اذا أقبل زوجك فسأعطيه فرنكا لكى يتناول كأسا فى البار المقابل .

ــ أهذا هو زوجك ؟

ــ نعم . انه هو .

ــ انه يبدو مغفلا جميلا .. وهذه ؟ .. من هى ؟ أهى احدى صديقاتك ؟

وكان يتكلم عن صورتك يا عزيزتى ، تلك التى تظهرين فيها بثوب الرقص . ولم أدر بماذا أجيبه وتمتمت :

ــ نعم . انها احدى صديقاتى .

ودقت الساعة خمس دقات فى هذه اللحظة ورأوول يعود فى

الخامسة والنصف ، واذا عاد قبل أن ينصرف الآخر فماذا يكون ؟ .. أرأيت ؟ .. وفقدت رأسى عندئذ مرة واحدة .. رأيت .. رأيت ان الافضل هو .. ان .. أن أتخلص من هذا الرجل .. فى أقرب وقت .. واننى كلما عجلت .. ولعلك تفهمين ما أعنى .. و .. وقع ما لابد منه .. لم يكن هناك مفر من ذلك .. لم يكن هناك مفر من ذلك يا عزيزتى ، وما كان لينصرف بغير ذلك .. فأغلقت باب الصالون بالمزلاج .. وهكذا ..

أخذت المركيزة الشابة دى ريدون تضحك وقد دفنت رأسها فى الوسادة والفراش يهتز بها كله ، وقالت تسأل صديقتها بعد ان هدأت بعد لحظة :

ـ وهل كان ذلك الشاب وسيما ؟

ـ نعم .

ـ فيم تتذمرين اذن ؟

ـ ولكن .. ولكن .. ألا تفهمين يا عزيزتى ؟ .. انه قال لى انه سيعود غدا فى نفس الوقت و .. وأنا شديدة الخوف .. لا يمكن أن تتصورى كم هو ملح وعنيد . ما العمل ؟ .. قولى لى ، ما العمل .

جلست المركيزة الشابة فى فراشها تفكر ثم قالت :

ـ ابلغى البوليس بأمره فيسارع بالقاء القبض عليه .

دهشت البارونة وتمتمت تقول :

ـ كيف ؟ .. ماذا تقولين ؟ .. وفيم تفكرين ؟ .. أشكوه للبوليس ؟ .. وماذا أقول ؟

ـ أوه ، ان الامر بسيط .. بسيط جدا .. اذهبى الى القوميسير وقولى له ان رجلا يتعقبك منذ ثلاثة شهور وانه كان من الوقاحة بحيث صعد الى مسكنك أمس وأنه هددك بأن يعود لزيارتك غدا وانك تطلبين حماية القانون .. وسيرسل شرطيين لالقا القبض عليه .

ـ ولكن ما العمل اذا تكلم يا عزيزتى .

ـ لن يصدقه أحد أيتها الغبية .. خصوصا اذا أحسنت تدبير

قصتك للقوميسير . وسوف يصدقك هذا الاخير فأنت من نساء المجتمع .

ـ أوه .. اننى لن أجرؤ أبدا .

ـ ولكن يجب أن تفعلى كما أقول والا فأنت هالكة .

ـ أخشى أن يهيننى ويحقرنى اذا ما ألقوا القبض عليه .

ـ اذا فعل ذلك فسوف يكون هناك شهود وسيحكمون عليه .

ـ يحكمون عليه بأى شىء .

ـ بأن يدفع لك تعويضا .. لابد للواحدة منا أن تتخلى عن كل رحمة فى مثل هذا الموقف .

ـ أوه .. بمناسبة التعويض .. هناك شىء يضايقنى .. يضايقنى كثيرا .. انه ترك لى دينارين فوق المقعد .

ـ ديناران ؟

ـ نعم .

ـ فقط ؟

ـ نعم .

ـ هـذا قليل . لو كان الامر معى لأحسست بالمذلة والمهانة .. حسنا .

حسنا ؟ .. ماذا أفعل بهذا المبلغ ؟

ترددت المركيزة الشابة بضع ثوان قبل أن تقول بلهجة الجد :

ـ يا عزيزتى .. يجب أن .. يجب أن تشترى به هدية لزوجك .. وليس هذا الا عدلا .

أســـــرة



أسرة

كنت فى طريقى لزيارة صديقى سيمون رادينان ، ولم أكن قد رأيته منذ خمسة عشر عاما ، وكان فى سابق العهد بنا صديقى الحميم .. صديق الصبا ونديم الفكر الذى أقضى معه الليالى الطويلة الهادئة المرحة ، والذى أبثه أدق أسرار قلبى ، وأجد فى حديثه العذب الافكار النادرة النيرة الشيقة التى تولدها المحبة الخالصة والود الصادق اللذين يجد فيهما العقل متعته وراحته .

وقد دامت صداقتنا أعواما طويلة لم نفترق فيها ، عشنا معا وارتحلنا وفكرنا وحلمنا معا وأحببنا نفس الاشياء نفس الحب واستوعب كل منا نفس المؤلفات التى استوعبها الآخر ، وأحسسنا بنفس المشاعر والخلجات وكثيرا ما ضحكنا من نفس الاشخاص الذين كنا نفهمهم حق الفهم بمجرد أن نتبادل النظر .

ثم تزوج سيمون .. تزوج بفتاة من الريف أقبلت لكى تبحث لها عن خطيب .. كيف استطاعت تلك الفتاة النحيلة الشقراء ذات اليدين الخرقاوين والعينين الصافيتين الخاليتين من أى تعبير ، وذات الصوت الرقيق السخيف والتى تشبه مئات الالوف من غيرها من الفتيات اللاتى يسعين خلف الازواج ، كيف استطاعت تلك الفتاة أن تفتن الشاب الذكى النجيب ؟

ولكن هل يمكننا أن نفهم مثل هذه الامور ؟ .. لا ريب أنه تمنى السعادة اليسيرة الهادئة الدائمة فى أحضان امرأة رقيقة مخلصة ، ولا ريب أنه رأى كل ذلك فى عينى تلك الفتاة ذات الشعر الاشقر الشاحب .. لم يخطر له ان الرجل النشيط الذى يتدفق حيوية وحماسا سيحل كل شىء بمجرد أن يدرك الحقيقة السخيفة الا اذا تبلد ذهنه الى حد العجز عن ادراك أى شىء بعد ذلك .

ترى ... على أى حال ســـأجده ؟ .. أما زال نشيطا ذكيا ضاحكا ، شديد الحماس ، أو ترى الحياة الريفية قد بلدت ذهنه ؟ .. ان الانسان يمكن أن يتغير فى مدى خمسة عشر عاما .

وقف القطار فى محطة صغيرة ، وعندما هبطت من العربة تقدم رجل سمين شديد السمنة ، أحمر الوجنتين ، كبير الكرش واندفع نحوى صائحا فاتحا ذراعيه : جورج ! وضـــممته الى صـــدرى ، ولكننى لم أعرفه ثم تمتمت فى دهشة : يا الهى ! ولكنك سمنت ! فأجاب وهو يضحك : ماذا تريد ؟ انها الحياة الطيبة والمائدة الطيبة والليالى الطيبة .. الاكل والنوم .. هذه هى حياتى .

وتأملته طويلا وأنا أبحث فى هــذا الوجــه الكبير عن الملامح المحبوبة . ان العين وحدها هى التى لم تتغير ، ومع ذلك فلم أجد فيها تلك النظرة المألوفة ، ورحت أقول لنفسى اذا كان حقا ان النظرة هى الصورة التى تعكس ما يجول فى الفكر ، فان الافكار التى تدور فى هذا الرأس ليست نفس الافكار التى كانت تدور فيها فيما سبق والتى أعرفها حق المعرفة .

ومع ذلك فان عينيه كانتا تبرقان وتتجلى فيهما البهجة وامارات الصداقة . ولكنهما كانتا لا تنطقان فى هذه اللحظة بذلك الضياء الذكى الذى كان يعبر أكثر مما تعبر به الكلمة المنطوقة .

وقال سيمون فجأة : جورج ، أقدم اليك ولدى الاكبرين .

وتقدمت فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها تكاد تكون امرأة ناضجة الانوثة وفتى فى الثالثة عشرة من عمره يرتدى ثياب الطلبة .. تقدما فى ارتباك وفى حركات خرقاء ، فتمتمت أقول :

ــ أهما ولداك ؟

فأجابنى وهو يضحك : طبعا .

ــ كم لديك من الاولاد ؟

ــ خمسة .. هناك ثلاثة آخرون تركتهم فى المنزل .

نطق بهذا القول فى زهو وفخار وسرور ، بل فى شبه انتصار ، اما انا فقد أحسست بازدراء غامض نحو هذا المنتج المتكبر الساذج

الذى يقضى لياله فى صنع الاطفال بين غفوتين ، فى بيته الريفى ، كما تفعل الارانب فى أقفاصها .

وركبنا عربة ساقها هو نفسه وانطلقنا خلال المدينة ، وهى مدينة حزينة خامدة ، كئيبة لا تدب الحركة فى شـــوارعها ، وليس فيها أى شىء فيما عدا بضعة كلاب وخادمتين أو ثلاث ، ومن آن لآخر كان يقف أحد أصحاب الحوانيت بباب حانوته ويرفع قبعته .

وكان سيمون يرد تحيته وهو يذكر الرجل باسمه ليثبت لى دون أى شك انه يعرف كل الاهالى بأسمائهم ، وتذكرت عندئذ انه يفكر فى ترشيح نفسه لمجلس النواب ، وهو حلم يراود كل الذين يدفنون أنفسهم فى الريف .

وسرعان ما اجتزنا المدينة ، ودخلت العربة حديقة كبيرة أشبه بالمنتزة ثم توقفت أمام بيت ذى أبراج قريب الشبه بالقصور .

وقال سيمون متوقعا أن يسمع بعض المديح :

ــ هذا هو بيتى المتواضع .

وظهرت بالبسطة سيدة ترتدى ثياب الزيارة وقد صقلت شعرها لمقابلة الزوار وعلى شفتيها كلمات الترحيب .. لم تعد تلك الفتاة الشقراء النحيفة التى رأيتها فى الكنيسة منذ خمسة عشر عاما ، ولكنها غدت سيدة سمينة ترتدى المشجر والمطرز ، احدى هاته النسوة التى لا تظهر عليهن أعمارهن ولا يتمتعن بأية شخصية .. لا أناقة ولا ذكاء ولا أى شىء من تلك الاشياء التى تميز المرأة الرقيقة .. صفوة القول أنها كانت أما .. أما ضخمة عادية تبيض دجاجة آدمية .. آلة من اللحم تنتج دون أن يشغل ذهنها شاغل فيما عدا الاطفال وكتاب الطهو .

ورحبت بى ودخلت باحة القصر حيث وقف ثلاثة أطفال اصطفوا تبعا لأطوالهم ، كما يفعل رجال المطافى أمام العمدة يوم التفتيش .. وقلت :

ــ آه .. آه .. أهؤلاء هم الآخرون ؟

وأجابنى سيمون وهو متألق الوجه : جان وصوفى وجونتران .

وكان باب الصالون مفتوحا فدخلت ورأيت فى آخر الغرفة ، فى مقعد كبير رجلا يرتعش .. رجلا تقدمت به السن الى حد أنه عجز عن الحركة .

وتقدمت مدام راديفان وهى تقول : هذا جدى يا سيدى ... انه بلغ السابعة والثمانين من عمره .

بذل الجهد محاولة كبيرة لكى يحيينى ولم يزد على ان قال : را .. را .. را .. وهو يهز يده وأجبته : انت رجل كريم ياسيدى، وتهالكت فوق مقعد .

ودخل سيمون فى هذه اللحظة وقال وهو يضحك : آه .. آه .. أراك قد تعرفت ببابا .. ان هذا العجوز تحفة لا تقدر بمال .. انه تسلية الاولاد .. فهو من الشراهة بحيث يعرض نفسه للموت من أجل وجبة واحدة .. لا يمكنك أن تتصور مقدار ما يتناوله من طعام لو أننا تركنا له حرية الاكل .. ولكنك ستراه الآن .. انه ليغمز بعينه لكل أطباق الحلوى كما لو كانت هذه الاطباق من الآنسات .. لن تلتقى أبدا فى حياتك كلها بأغرب من هذا العجوز .. وسترى ذلك بعينيك .

ثم مضوا بى الى غرفتى لكى أستبدل ثيابى لدنو ساعة تناول العشاء ، وسمعت على السلم وقع أقدام كثيرة فالتفت استطلع الامر فاذا بكل الاولاد يتبعوننى ، الاكبر فالاصغر وهكذا يتقدمهم ابوهم ، ولا ريب أنهم أرادوا تكريمى بطريقتهم هذه .

وكانت غرفتى تطل على الوادى ، وهو واد قفر لا نهاية له ، عار من كل شىء . كان يبدو كمــــا لو كان بحرا كبيرا من الحشائش وسنابل القمح والشوفان ليس به ولا حتى شجرة واحدة أو ربوة . كان صورة مؤسفة ومحزنة للحياة التى يقضيها الناس فى هذا المــكان .

ودق جرس ايذانا بالعشاء فهبطت .

اخذت مدام راديفان بذراعى كمــا لو كنــا فى حفلة رسمية ، ودخلنا غرفة الطعام ، وكان خادم يدفع بمقعد العجوز الذى ما أن

وجد نفسه أمام المائدة حتى القى على أنواع الصحاف نظرة نهمة غريبة وهو يكاد يلوى رأسه المخلخل لكى يدور بعينيه على أطباق الطعام المختلفة .

وفرك سيمون يديه حينئذ وقال : سوف تستمتع .

وأدرك الاولاد كلهم اننى سأشترك معهم فى الاستمتاع برؤية جدهم الشره فضحكوا فى وقت واحد فى حين قنعت أمهم بالابتسام وهى تهز كتفيها .

وصاح راديفان بالعجوز وقد جعل يديه أمام فمه كالبوق :

ـ لدينا هذا المساء كريمة الارز بالسكر .

واشرق وجه الجد الكثير بالتجاعيد وانتفض من قمة رأسه الى اخمص قدميه اشارة الى أنه فهم وانه مسرور

وبدأنا نتناول الطعام وتمتم سيمون يقول : انتظر .

لم يكن الجد يحب الحساء ، وقد أبى تناوله ولكنهم أرغموه على ذلك بالقوة من أجل صحته ، فراح الخادم يدفع بالملعقة داخل فمه قسرا فى حين كان هو يحاول بكل ما أوتى من قوة أن لا يزدرد الحساء الذى كان يرتد فيتناثر كالنافورة على المائدة وعلى المحيطين به .

وأخذ الاولاد يتلوون من الضحك فى حين كان أبوهم يكرر قائلا : ان هذا العجوز غريب الاطوار .. أليس كذلك ؟

وطوال الوقت الذى قضوه فى تناول الطعام لم يهتموا بشىء الا به هو . كان يلتهم الاطباق المصفوفة فوق المائدة بعينيه ويحاول جهده أن يمسك بها بيديه وأن يجتذبها اليه . وكانوا يصنعون الاطباق فى متناول يده تقريبا لكى يروا محاولاته اليائسة واندفاعه المرتعش وابتهالاته الحزينة التى ينطق بها كيانه كله والتى تتجلى فى عينيه وثنايا فمه وخياشيمه التى تشمها ، وكان لعابه يسيل فوق منشفته لفرط ما تستبد به من رغبة وهو يطلق همهمة متقطعة غير مفهومة . وكانت الاسرة كلها تستمتع بهذا العذاب الرهيب الفظيع .

وقدموا له أخيرا فوق طبق قطعة صغيرة جدا أزدردها في شراهة محمومة لكي يحصل على نصيب أوفر بأسرع ما يمكن .

وعندما جيء بكريمة الارز أخيرا كاد يتشنج .. وراح يئن من الرغبة .. وصاح جونتران به يقول :

ـ انك أكلت أكثر من اللازم ولن تأخذ شيئا من الحلوى .

وتظاهروا بأنهم لن يعطوه شيئا حقا فراح يبكى . وكان يبكى وجسمه ينتفض أكثر من ذى قبل راح الاولاد يضحكون .

واعطوه نصيبه أخيرا ، وكان لا يعدو جزءا صغيرا جدا . وأكله وهو يصدر من حنجرته صوتا مضحكا شرها ويحرك عنقه كما يفعل البط حين يزدرد لقمة أكبر مما يجب فتقف فى زوره .

وحين فرغ أخيرا راح يضرب الارض بقدمه لكى يعطوه المزيد .

وتملكتنى الشفقة ازاء عذاب هذا العجوز المضحك السخيف وقلت متوسلا نيابة عنه :

ـ ولكن .. اعطه قليلا من الحلوى .

قال سيمون : كلا يا عزيزى . لو انه أفرط فى الاكل وهو فى سنه هذه فقد يضره ذلك .

ولم يسعنى الا أن اسكت وأن أفكر فى هذه الكلمات .. أدب السلوك والمنطق والحكمة .. فى سنه هذه .. انهم يحرمونه من متعته الوحيدة التى يستطيع أن يستمتع بها خوفا على صحته .. صحته .. وماذا يفعل بها هذا الحطام العاجز الذى ينتفض . أنهم يشفقون على أيامه كما يقولون .. أيامه .. كم يوما .. عشرة أو عشرون أو خمسون أو مائة يوم ؟ .. ولماذا ؟ .. أمن أجله ؟ .. أم لكى يدخره أطول وقت ممكن لكى تستمتع أسرته بمنظر شراهته التى لا يستطيع هو شيئا ازاءها .

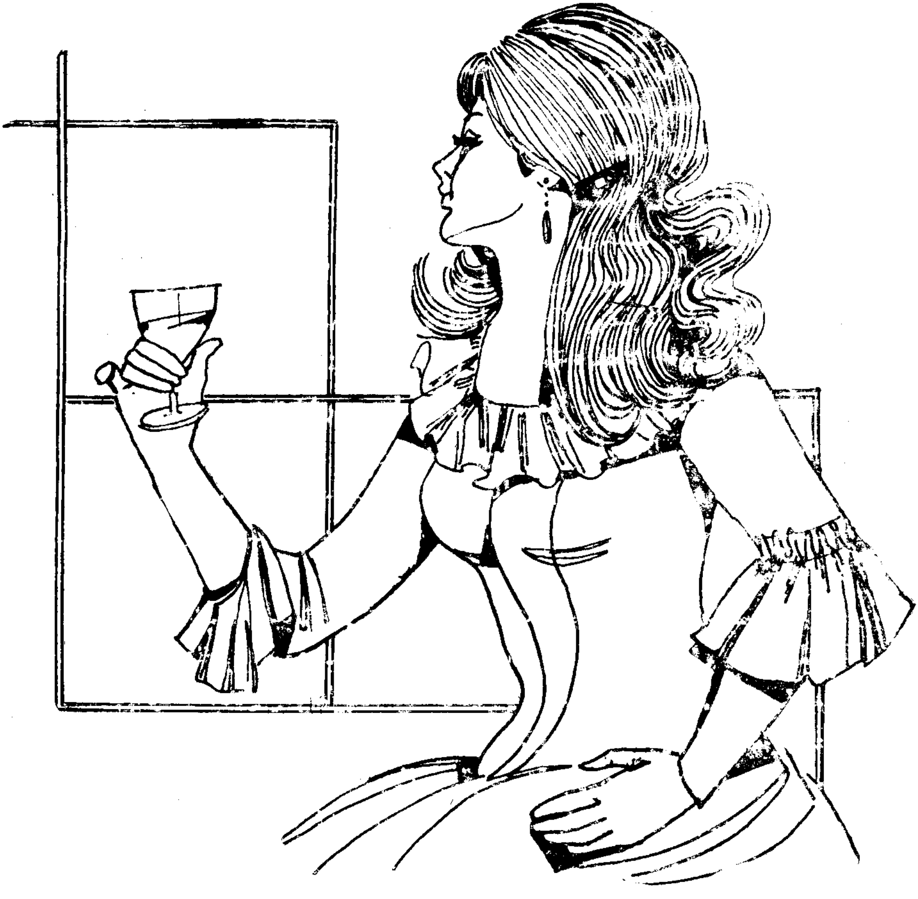
لم يبق له أى شىء فى هذه الدنيا .. لم يبق له شىء .. بل بقيت له رغبة واحدة .. متعة واحدة .. فلماذا لا يمنحونه اياها ، وهى متعته الاخيرة ؟ لماذا لا يمنحونه اياها الى أن تتسبب فى موته ؟

وقضينا مدة كبيرة بعد ذلك فى لعب الورق ثم صعدت الى غرفتى لانام .. وكنت حزينا ، شديد الحزن .

ووقفت أمام النافذة . لم اسمع أى صوت بالخارج ... لم اسمع غير زقزقة شديدة الخفوت ومتناهية الرقة ومتناهية العذوبة .. زقزقة عصفور قابع فى عشه فى شجرة فى مكان ما .. عصفور كان يشدو بهذا الصـوت الخافت فى جوف الليل مهدهدا أنثاه الراقدة فوق بيضها .

وفكرت فى الاولاد الخمسة الذى انجبهم صديقى المسكين سيمون الذى لا ريب انه يغط الآن فى نومه بجوار زوجته السمجة .

جوزيــف



جوزيف

كانتا ثملتين ، ثملتين تماما .. البارونة الشابة اندريه دى فريزير والكونتس الشابة نعومى دى جاردنر .

كانتا قد تناولتا العشاء معا على انفراد فى الغرفة الزجاجية المطلة على البحر ، وقد انسابت من النوافذ المفتوحة نسمة رقيقة من تلك النسمات الحلوة التى يحملها المحيط ... نسمة ندية وحارة فى نفس الوقت . وكانت المرأتان قد استلقتا فوق مقعدين مستطيلين ، وقد راحت كل منهما ترشف جرعة من الشمبانيا ما بين لحظة وأخرى ، وتدخن سيجارة وهى تبث بمكنون قلبها الى صاحبتها بطريقة ما كانت لتقدم عليها لولا تلك الثمالة الحلوة التى استولت عليهما .

كان زوجاهما قد رحلا الى باريس فى مساء ذلك اليوم بالذات وتركاهما وحدهما على هذا الشاطىء الصغير الذى وقع عليه اختيارهما ، تجنبا لمضايقات الشباب الذين تزخر بهم الشواطىء المشهورة . وكانا يتغيبان خمسة أيام من كل أسبوع ، ويفشيان المتنزهات الريفية والمروج المزدهرة لتناول الطعام فى الخلاء ، ويختلفان الى دروس السباحة وقد جمعت بهما تلك الالفة السريعة التى سرعان ما تتوالد فى المصايف حيث لا عمل فيها غير اللهو والاستحمام ، وهربا من مصايف دييب واريترنا وتروفيل واستأجرا بيتا مهجورا بناه رجل غريب الاطوار فى وادى روكفيل على مقربة من فيكامب ، ودفنا زوجتيهما فى ذلك البيت طوال مدة الصيف .

وأسكر الشراب المرأتين ولم تدر البارونة ماذا تفعل للتسلية وقتل الوقت فاقترحت على الكونتس أن يتناولا عشاء طيبا مع كئوس

الشمبانيا ، وقد راق لهما فى البداية ان يقوما بطهو الطعـــــام بنفسيهما ، وتناولتاه فى غبطة وسرور واحتستا الخمر بغير حساب لاطفاء ظمئهما الذى أثارته حرارة الموقد ، وراحتا تتبادلان الحديث والهذر أثنـــاء التدخين واحتساء الخمر ، ولم يلبث الشراب ان اسكرهما الى حد أن كلا منها لم تعد تفقه ما تقول .

وكانت الكونتس قد ألقت ساقيها فوق احد المقاعد وبدت أكثر سكرا من زميلتها وهى تقول :

ـ لا ينقصنا فى هذه السهرة غير العشاق . والحق اننى لو كنت أتوقع ان الامر سيكون هكذا لجئت معى بعشيقين من باريس ولنزلت لك عن واحد منهما .

اجابتها الاخرى : أما أنا فاننى أجد ما أريد من العشاق دائما ، ولو اننى اردت عشيقا هذه الليلة بالذات لحصلت عليه .

ـ انت والله حمقاء ! .. هنا فى روكفيل يا عزيزتى .. لا شك انك تعنين عشيقا فلاحا اذن .

ـ كلا . ليس فلاحا بمعنى الكلمة .

ـ حسنا .. قصى على اذن .

ـ وماذا تريدين أن أقول لك ؟

ـ حدثينى عن هذا العشيق .

ـ « اننى لا أستطيع أن أحيا من غير حب يا عزيزتى .. فلو اننى عشت من غير حب لحسبت اننى ميتة .

ـ وانا كذلك ؟

ـ نعم . ان الرجال لا يفهمون هذا الامر ، وخاصة زوجانا .

ـ كلا ، أبدا . وكيف تريدين أن يكون الامر على غير ما تقولين ؟ ان الحب الذى نصبو اليه قوامه الدلال والرقة والغزل ، ففى هـذه الاشياء غذاء لقلوبنا ، وهو غذء لا غنى عنه لحياتنا .. نعم ، لا غنى عنه ..

ـ هو كذلك . لا غنى لنا عنه على الاطلاق .

ـ يجب أن أشعر ان هناك من يفكر فى دائما ، فى كل مكان ..

حين أرقد وحين أصحو .. يجب أن أعلم ان هناك من يحبنى فى مكان ما .. وان هناك من يحلم بى ويشتهينى ، وبغير هذا فاننى أكون تعيسة يائسة . أوه ، تعيسة لا أجد أمامى الا البكاء طوال الوقت .

ـ وأنا أيضا .

ـ ألا ترين اذن ان الحياة بغير الحب محال ، فان الزوج عندما يكون رقيقا مدة ستة شهور أو سنة أو سنتين يصبح وحشا بعد ذلك دون أى شك .. وحشا حقيقيا .. لا يعنيه اى شىء ، ويظهر عندئذ على حقيقته ، ويتشاجر بسبب الفواتير مهما كانت قيمتها .. والمرأة لا يمكن أن تحب رجلا تعيش معه بصفة دائمة .

ـ الواقع كذلك ..

ـ أين بلغت من حديثى اذن ؟ .. اننى لا أتذكر أبدا ..

ـ كنت تقولين ان كل الازواج وحوش .

ـ نعم .. وحوش .. كلهم .

ـ هذا صحيح .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ ماذا كنت أقول بعد ذلك ؟

ـ لا أدرى ، فأنت لم تقولى شيئا .

ـ ولكننى كنت أريد أن أقول لك شيئا مع ذلك .

ـ نعم ، هذا صحيح .. انتظرى .

ـ آه ، اننى تذكرت .

ـ وأنا مصغية اليك .

ـ كنت أقول لك أننى أجد ما أريد من العشاق فى كل مكان .

ـ وكيف تفعلين ؟

ـ ان الامر بسيط . اصغى الى جيدا .. عندما أنتقل الى بلد جديد أبدا بجمع المعلومات ثم أختار بعد ذلك .

ـ تختارين ؟

ـ طبعا . أجمع المعلومات أولا .. ثم استعلم عن كل ما أريد ..

قبل أن اقدم على اى شيء .. يجب ان يكون الرجل الذى اختاره كتوما وثريا وسخيا . أليس كذلك ؟

ــ هذا صحيح .

ــ ثم يجب بعد ذلك ان يروق لى كرجل .

ــ هذا أمر مفروغ منه .

ــ وعندئذ أرمى شباكى عليه .

ــ ترمين شباكك عليه ؟

ــ نعم .. كما يفعل الصياد عندما يصطاد السمك ... الم تصطادى ذات يوم سمكا بالصنارة ؟

ــ كلا ، أبدا .

ــ أنت مخطئة . انه عمل فيه تسلية كبيرة . ثم ان فيه ثقافة أيضا .. ارمى شباكى عليه اذن .

ــ وكيف تفعلين ؟

ــ ما أغباك ! ان النساء تلقى شباكها على الرجال الذين يروقون لهن . ولا خيار للرجال فى ذلك .. ان هؤلاء الاغبياء يحسبون انهم هم الذين يختارون .. والواقع اننا نحن الذين نختار .. دائما .. اعلمى ان المراة ، ما دامت جميلة وذكية مثلنا ، فان كل الرجال يمكن أن يصلحوا لها دون استثناء .

ونحن نقضى طوال اليوم نستعرضهم من الصباح الى المساء ، وحين يقع اختيارنا على واحد منهم ، نرمى بشباكنا عليه على الفور .

ــ ولكنك لم تقولى لى كيف تفعلين ؟

ــ كيف أفعل ؟ .. ولكننى لا أفعل شيئا .. أتركهم يتأملوننى ، وهذا كل شيء .

ــ تتركينهم يتأملونك ؟

ــ طبعا ، وفى هذا الكفاية ، فان الرجل الذى تروق له امرأة يتأملها .. يتأملها مرارا وتكرارا ولا يلبث ان يراها اجمل النساء قاطبة وأكثرهن فتنة وأغراء ، وعندئذ يبدأ فى مغازلتها . اما انا

فأدعه يفهم عندئذ انه يروق لى ، ولكن من غير أن انطق بكلمة طبعا، ويقع فى حبى على الفور . وعندئذ لا أدعه يفلت منى ، وتظل علاقتى به طبقا لتصرفاته .

ـ وهل تتصرفين بهذه الطريقة مع كل من تريدين ؟

ـ معهم جميعا تقريبا .

ـ هناك من يقاوم اذن .

ـ فى بعض الاحيان .

ـ ولماذا ؟

ـ أوه ، لماذا ؟ .. لان الرجال يتصرفون كما تصرف جوزيف لأسباب ثلاثة .. اما لانه شديد التعلق بامرأة أو شديد الخجل والحياء .. واما لأنه ... كيف أقول .. يعجز عن غزو المرأة حتى النهاية .

ـ أوه يا عزيزتى .. هل تظنين ؟

نعم .. نعم .. اننى واثقة مما أقول .. هناك كثيرون من هـذا النوع الاخير .. كثيرون جدا .. اكثر مما نعتقد .. أوه ، انهم يبدون كغيرهم من الرجال .. فهم يلبسون مثلهم .. ويزهون كما يزهو الطاووس ولكننى أخطىء فى تشبيهى لهم بالطاووس فهم .. لا يحسنون التصرف .

ـ أوه ، أيتها العزيزة .

ـ اما الخجولون منهم فغالبا ما يكونون على حد كبير من الغباء، فهم لا يعرفون كيف ينضون ثيابهم عنهم عندما يرقدون وحدهم ، وعندما تكون برفقتهم امرأة . ويجب أن تكون المرأة مع مثل هذا النوع من الرجال قـوية الارادة ، وان تستخدم عينيها ، وان تعرف كيف تضغط على يد الرجل .. بل ان هـذه الطريقة تكون عديمة الجدوى فى بعض الاحيـان ، فان الرجال لا يعرفون كيف يبدأون ، وعندما تفقد المرأة وعيهـا امامهم كوسيلة أخرى ، فانهم لا يفهمون ويخفون لاسعافها ، واذا ما أبطأت فى استرداد رشـدها أسرعوا يبحثون عن العون والمساعدة .

أما الذين أفضلهم أنا فهم عشاق النساء الاخريات ، فانني أضع يدى عليهم بالقوة ، اذا جاز لى أن أستخدم هذا القول .
ـ هذا حسن .. ولكن ماذا تفعلين حين لا يكون هناك رجالا كما هو الحال الآن ؟
ـ أعثر عليهم .
ـ تعثرين عليهم ؟ .. ولكن أين ؟
ـ فى أى مكان ... وهذا يذكرنى بقصتى على كل حال .
« فمنذ عامين ، حملنى زوجى على قضاء الصيف فى عزبته ببوجرول ، وهى عزبة مقفرة لا يوجد بها أحد .. أتسمعين ؟ .. لا أحد البتة ، ولا يسكن القصور المجاورة غير بعض الرجال الاجلاف البغيضين الذين يقضون وقتهم فى الصيد والقنص ويعيشون فى بيوت خالية من أحواض الاستحمام .. من ذلك النوع من الرجال الذين يتفصدون عرقا وينامون بعرقهم ، والذين لا يمكن تقويمهم أو اصلاحهم لان مبادئهم فى الحياة وقوامها القذارة .
« خمنى ماذا فعلت .
ـ لن أخمن .. قولى لى ماذا فعلت .
ـ آه . آه .. آه .. كنت قد فرغت من قراءة بضع روايات لجورج صاند تتكلم فيها عن رجل الشعب وتمجده .. روايات العمال فيها ساميون ورجال المجتمع مجرمون .. أضيفى الى ذلك اننى كنت قد شاهدت مسرحية روى بلاس فى الشتاء السابق وهى مسرحية اثارتنى الى حد كبير . حسنا . كان لاحد الفلاحين الذين يعملون بالعزبة ولد .. شاب وسيم ، فى الثانية والعشرين من عمره ، تلقى دروسه لكى يغدو كاهنا ، ولكنه لم يلبث ان هجر المدرسة الاكليريكية تقززا .. حسنا .. اننى اتخذته خادما لى .
ـ أوه ، وبعد ذلك ؟
ـ بعد ذلك .. عاملته فى ترفع كبير يا عزيزتى ، وأنا اريه الكثير من نفسى .. اننى لم أرم شباكى على ذلك الفلاح وانما أشعلته .

ـ أوه يا أندريه ...

ـ انه اشتعل يا عزيزتى كما يشتعل سقف من القش . وكنت اذا جلست الى المائدة بعد ذلك لتناول الطعام ، لم يكن يحلو لى الا أن أتحدث عن النظافة وعن عناية المرء بجسده وهندامه ، وعن الحمامات والاغتسال بحيث انه بعد أسبوعين كان يلقى بنفسه فى النهر صباحا ومساء ثم يتعطر بعد ذلك بحيث يملأ أرجاء القصر برائحة عطره . واضطررت أخيرا أن أمنعه من استعمال العطور قائلة له فى صوت محنق أن الرجال لا يجب أن يستعملوا شيئا فيما عدا الكولونيا .

ـ أوه يا أندريه !

ـ ثم رفعت الكلفة بينى وبينه بعد ذلك ، وعاملته كما لو كان صديقا لى . وكنت قد أطلقت عليه اسم « جوزيف » ، وقد أصبح فى حالة يرثى لها يا عزيزتى وأصابه الهزال ... حتى بدا كالديك .. وراحت عيناه تدوران فى محجريهما كما يفعل المجنون .. وقد استمتعت بمنظره كثيرا وهو على هذه الحال . وكان ذلك الصيف أجمل صيف فى حياتى كلها .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ بعد ذلك ؟ .. فى ذات يوم ، وكان زوجى غائبا ، قلت له أن يعد المركبة وأن يمضى بى الى الغابة ، وكان الجو حارا ... شديد الحرارة وهكذا ...

ـ أوه يا أندريه .. قولى لى كل شىء .. ان هذه القصة تطيب لى كثيرا .

ـ اليك هذا الكأس من الشمبانيا فاحتسيه والا شربت الزجاجة كلها وحدى .. بعد ذلك أغمى على وأنا فى الطريق .

ـ وكيف هذا ؟

ـ ما أغباك ! قلت له اننى أشعر بأنه سيغمى على وأنه يجب أن يحملنى فوق العشب .. وحين ألفيت نفسى فوق العشب تظاهرت بأننى سأختنق وطلبت منه أن يفك أزرار ثوبى ... وبعد ان فرغ

من ذلك غبت عن الصواب .
ــ هكذا ؟
ــ أوه ، كلا ، طبعا .
ــ حسنا .
ــ حسنا . اضطررت الى البقاء غائبة عن الوعى نحو ساعة ، ولم يجد هو أى دواء ولكننى استعنت بالصبر ولم أفتح عينى الا بعد زلته .
ــ أوه يا أندريه .. وماذا قلت له ؟
ــ انا لا شيء طبعا .. وهل كان فى مقدورى ان أعرف ما جرى لى ما دمت كنت غائبة عن الوعى ؟ .. اننى شكرته وقلت له ان يحملنى الى العربة ، ومضى بى الى القصر ، ولكنه أوشك أن يقلب العربة وهو يدور بها فى المنحنى .
ــ أوه يا أندريه .. اهذا كل شيء ؟
ــ نعم ، كل شيء .
ــ الم يغم عليك مرة أخرى .
ــ كلا طبعا ، لأننى لم اشأ أن اتخذ من هذا الخادم عشيقا لى .
ــ وهل أبقيته فى خدمتك طويلا .
ــ طبعا ، وهو لا زال فى خدمتى حتى اليوم .. ولماذا أطرده ، ليس هناك ما أشكو منه .
ــ أوه يا أندريه .. وهل لا زال يحبك ؟
ــ طبعا .
ــ وأين هو ؟
مدت البارونة الشابة اصبعها نحو الحائط وضغطت على الجرس الكهربى ففتح الباب على الفور تقريبا ، ودخل خادم طويل القامة ، ملأ الغرفة برائحة الكولونيا التى تنبعث منه . وقالت له البارونة :
ــ جــوزيف .. أظن انه سيغمى على .. اذهب واســتدع لى وصيفتى .
بقى الرجل مكانه جامدا لا يتحرك ، كالجندى أمام ضــابطه ،

القى نظرة ملتهبة على سيدته ، فاستطردت هذه تقول :

ـ عجل بالذهاب أيها الغبى فاننا لسنا فى الغابة الآن ، وسوف تعنى روز بى خيرا منك .

ودار الرجل على عقبيه وخرج .

أما الكونتس الشابة فقالت فى جزع :

ـ وماذا تقولين لوصيفتك ؟

ـ سأقول لها اننى لم أعد بحاجة اليها .. كلا .. بل سأقول لها أن تفك أزرار ثوبى .. فان ذلك سينفس عنى لاننى لم أستطع الاحتمال ... اننى سكرى يا عزيزتى .. ســـكرى الى حد اننى سأقع اذا ما حاولت الوقوف .

الفنــدق



الفندق

مثل جميع الفنــادق الخشبية المنتشرة فى أعالى جبال الالب ، عند سفوح الثلوج ، وفى تلك الممرات التى تقطع قمم الجبــال البيضاء ، يقوم فندق شوارنباخ ، حيث يلجأ اليه المسافرون الذين يسلكون ممر جيمى .

وهذا الفندق يظل مفتوحا ستة أشهر ، وتسكنه أسرة جان هوزر ، فاذا ما بدأ الثلج يتساقط ويتكوم ويملأ الوادى الصغير جاعلا الهبوط الى لويش مستحيلا ، ترحل أسرة جان هوزر المكونة من الاب والزوجة وابنتهما لويز وأولادهما الثلاثة ، تاركين جاسبار هارى ، الدليل العجوز وأولريخ كونسى ، الدليل الشاب ومعهما سام الكلب الضخم لحراسة الخان .

ويبقى الرجلان والكلب حتى الربيع فى هذا السجن الجبلى ، لا تقع عيناهما الا على منحدر بلمهورن ، ذلك المنحدر الهائل الابيض الذى تحيط به القمم الشاحبة وتطبق عليه من كل ناحية وتحاصره الثلوج التى ترتفع حولهم فتكاد تدفنهم وتوشك ان تحطم الخــان الصغير وتتكوم فوق السطح وتصل الى نوافذه وتسد بابه .

وقد أقبل اليوم الذى ينبغى أن تعود أسرة هوزر الى لويش ، فقد اقترب الشتاء وأصبح هبوط المنحدر شديد الخطورة .

وانطلقت بغال ثلاثة فى المقدمة تحمل الملابس والامتعة ويقودها الاولاد الثلاثة ، ثم ركبت الام وابنتها لويز بغلة رابعة انطلقت بهما هى الاخرى .

وتبعهم الاب يرافقه الدليلان حتى قمة المنحدر .

وداروا أولا حول البحيرة الصغيرة المتجمدة الواقعة فى جوف الهوة السحيقة التى تحدها الصخور والتى تمتد أمام الخان ، ثم تقدموا فى الوادى الصغير الابيض الذى تشرف عليه الصخور الثلجية من كل ناحية .

وأرسلت الشمس أشعتها على هذه الصحراء البيضاء اللامعة المتجمدة فأنارتها بلهب بارد يعمى البصر ... لم نكن هناك فى هذا المحيط من الجبال حياة ما ، ولم يكن هناك فى هذا المكان المنعزل حس أو حركة .

وحث الدليل الشاب أولريخ كونسى خطاه ..وهو شاب سويسرى، مديد القامة ، طويل الساقين ، ولم يلبث ان خلف وراءه الاب هوزر جاسبار هارى ولحق بالبغلة التى تحمل المرأتين .

ونظرت اليه أصغر المرأتين وهو يتقدم منهما ، وبدا كأنها تدعوه اليها بعينين حزينتين ، وكانت فلاحة صغيرة القامة . شقراء اللون ، بيضاء الوجنتين ، شاحبة الشعر كما لو كانت اقامتها الطويلة بين الثلوج قد غيرت لونه .

وعندما لحق بهما وضع يده على ظهر البغلة وهدأ من سيره ، وراحت الام هوزر تحدثه وتمده بالنصائح العديدة الخاصة بفصل الشتاء ، فقد كان هذا أول شتاء له يقضيه فى الفندق ، بينما أمضى هارى العجوز شتاءه الرابع عشر تحت الثلج فى فندق شوارنباخ .

وأخذ أولريخ كونسى يصغى ويستمع اليها دون أن يبدو عليه ما يدل على انه يفهم أو يعى حرفا مما تقول ، فقد كان لا يفتأ ينظر الى الفتاة ، وكان يكتفى بأن يرد من وقت لآخر قائلا « نعم يا مدام هوزر » فى حين كان ذهنه بعيدا عنها ووجهه الهادىء لا يعبر عما يجيش فى رأسه .

وبلغوا أخيرا بحيرة دوب التى امتد سطحها المتجمد على طول الوادى ، وبدت على يمينها صخور جبل دوبنهورن السوداء ، واقتربوا من ممر جيمى ، وبدت لهم ، من بعيد ، القمم البيضاء الغير متساوية والتى تلمع تحت أشعة الشمس .. ومن تحتهم ، فى حفرة كبيرة وسط هوة سحيقة قرية لويش ، ببيوتها التى كانت أشبه بحبات من الرمل مبعثرة فى تلك الحفرة الكبيرة التى ينتهى اليها ممر جيمى .

ووقفت البغلة عند حافة الطريق الذى يتلوى ويتلوى فى غير انقطاع ويمتد على طول الجبل الى أن ينتهى الى هذه القرية

الصغيرة الرابضة عند سفحه ، ووثبت المرأتان فوق الثلج ، ولحق الرجلان بهما ، وقال الاب هوزر :

ـ والآن ، استودعكما الله والى الملتقى فى العام القادم .

وقال هارى العجوز : الى الملتقى فى العام القادم .

وتعانق الجميع وقدمت مدام هوزر خدها وفعلت الابنة مثلها .
وعندما جاء دور أولريخ كونسى تمتم فى أذن لويز يقول : « لا تنسى الذين فى الفندق » فأجابته تقول : « لا » بصوت خافت كان من الخفوت بحيث لم يسمعه وانما خمنه تخمينا .

وعاد جان هوزر يقول : استودعكما الله اذن .

ومر أمام المرأتين وشرع يهبط ، وسرعان ما اختفوا ثلاثتهم عند أول منعطف للطريق .

وكانا يسيران فى بطء ، جنبا الى جنب ، دون أن ينطقا ، فقد قضى الامر وسوف يمكثان وحدهما ، وجها لوجه ، أربعة شهور أو خمسة .

وأخذ جاسبار هارى يقص سيرة حياته فى الشتاء الماضى وهما يقطعان الطريق .. كان قد بقى مع ميشيل كانول الذى بلغ من الكبر عتيا بحيث لم يعد يستطيع أن يحتمل قضاء شتاء آخر بين الثلوج ، فقد يقع فيه حادث ما ، على أنهما لم يشعرا بأى ضيق أو ملل فقد راضا نفسيهما على مصيرهما منذ اليوم الاول ، ولن تلبث أسباب التسلية ان تتفتق فيقطعان الوقت فى لعب الورق أو الدومينو .
وجعل أولريخ كونسى يصغى . مطرق العينين ؛ لا يفكر الا فى الذين يهبطون ممر جيمى ، فى طريقهم الى القرية .

ولاح لهما الفندق أخيرا ... صغيرا فى بادىء الامر ، كنقطة سوداء عند سفح كومة من الثلج .

وعندما ضمهما الفندق راح سام ، الكلب الجبلى السمين يرقص حولهما مرحا . وقال العجوز جاسبار .

ـ هيا يابنى ، فليس معنا نساء الآن ، ويجب أن نجهز العشاء بأنفسنا ، وعليك أن تقوم الآن بتقشير البطاطس .

وجلسا على مقعدين من الخشب وأخذا يعدان الحساء .

وبدا صباح اليوم التالى لكونسى طويلا لا نهاية له . وراح العجوز

هاری یدخن ویبصق فی الموقد بینما جعل الشاب یحدق من النافذة الی الجبل الابیض الواقع أمام الفندق .

وخرج بعد الظهر وسلك طريق الامس ، وأخذ يبحث فی الارض عن آثار حوافر البغلة التی حملت المرأتین . وعندما بلغ عنق ممر جیمی انبطح علی صدره عند حافة الهوة ونظر الی لویش .

لم تكن القریة ، فی بئرها الصخری ، قد غرقت بعد فی الثلج ، وان كان قد تجمع علی بعد منها ، واعترضته أشجار الشوح الضخمة التی تحمی منافذها . كانت بیوتها الضخمة تبدو من المكان الذی یقف فیه كما لو كانت قطعا من البلاط فی وسط المروج .

كانت لویز هوزر هناك ، فی احدی هذه البیوت .. ولكن أیهـا یا تری ؟ كانت المسافة بعیدة جدا فلم یستطع أن یمیز البیت الذی تسكنه .. لشد ما تمنی لو أن یهبط فی تلك اللحظة قبل أن یتعذر علیه الهبوط .

ولكن الشمس كانت قد اختفت فعاد الشاب الی الفندق ، وكان العجوز هاری لا یزال یدخن فلما رأی زمیله قد عاد اقترح علیه أن یشاركه لعب الورق وجلسا ، أحدهما أمام الآخر ، وقضیا بعضا من الوقت فی اللعب ثم تنـاولا عشاءهما وأوی كل منهمـــا الی فراشه .

وتعاقبت الایام متشابهة ، وكانت أیاما صاخبة باردة لم یتساقط فیها مزید من الثلج . وكان العجـوز جاسبار یقضی أوقاته یرقب النسور والطیور القلیلة النادرة التی كانت تجازف بالصعود الی هذه القمم البارزة ، ثم یلعبان الورق أو النرد أو الدومینو فیربحان أو یخسران أشیاء تافهة كانا یتراهنـان علیها لیجعلا للعب أهمیـة وطعما .

وذات صباح نهض العجوز هاری قبل صاحبه ... كانت هناك سحابة عمیقة متحركة من الزبد الابیض تهبط علی الفندق وحوله بدون صوت فتكاد تدفنهمـا شیئا فشیئا تحت طبقة سمیكة من الثلج . واستمر هبوط الثلج أربعة أیام وأربع لیال . وكان لابد لهما من تخلیص الباب والنوافذ ونحت ممر ونحت سلم لكی یتسنی لهما شق طریقهما فی هذا الجلید الذی أحالته اثنتی عشرة ساعة من التجمد أشد صلابة من الجرانیت .

واذ ذاك عاش الرجلان هكذا ، سجينين لا يجرؤان على المجازفة بمغادرة الفندق واقتسما العمل وأخذ كل منهما يقوم بنصيبه منه فى انتظام ، فتولى أولريخ كونسى شئون النظافة والغسيل وتكسير الخشب بينما تكفل جاسبار هارى بأعمال الطبيخ واشعال النار ، فاذا ما فرغا من هذا العمل المنتظم الرتيب راحا يقطعان الوقت فى لعب الورق أو الزهر . ولم يحدث قط أن تشاجرا ، كما لم يحدث أن وجه أحدهما الى الآخر كلمة نابية أو جارحة ، فقد كان كلاهما ذا طبيعة هادئة مسالمة ، وقد راض كل منهما نفسه على قضاء الشتاء فوق القمم الثلجية .

وكان جاسبار العجوز يحمل بندقيته أحيانا ويخرج للصيد ، وكان يصطاد من وقت لآخر وغلا ، فاذا ما حدث ذلك كان هذا اليوم عيدا فى فندق شوارنباخ ووليمة فاخرة قوامها اللحم الطازج .

وذات صباح خرج الشيخ لهذا الفرض . وكانت درجة الحرارة ١٨ تحت الصفر ، ولم تكن الشمس قد بزغت بعد ، ولكن الشيخ كان يأمل أن يفاجىء بعض الوعول فى ثنايا الصخور .

وبقى أولريخ بمفرده ، فظل نائما حتى العاشرة اذا كان يحب النوم بطبعه ، ولم يكن ليجرؤ على أن يترك لنفسه العنان وهو يرى زميله الشيخ يصحو مع فجر كل يوم .

وتناول أفطاره فى بطء هو وسام ، وكان هذا يقضى أيامه ولياليه هو الآخر فى الرقاد أمام الموقد . ثم أحس الشاب بالحزن وأفزعته الوحدة وعاوده الحنين الى لعب الورق الذى أصبح عادة متأصلة فى نفسه فخرج للقاء زميله ، وكان يجب أن يعود فى الساعة الرابعة .

وكان الثلج قد مهد الوادى العميق كله فساوى بينه وبين الحفر ، ومحا البحيرتين وكسا الصخور ، وجعل من القمم المتعددة قمة واحدة بيضاء تكاد تبهر البصر .

لم يكن أولريخ قد عاد منذ ثلاثة أسابيع الى حافة الهوة لينظر الى القرية ، وكان يود لو أن يخرج ولكن قرية لويش كان يكسوها الآن طبقة ثلجية بحيث كان من العسير تمييز منازلها وطرقاتها .

وسار الى اليمين فى خطوات واسعة وهو يضرب الثلج بعصاه المكسوة بالحديد ، ويبحث بعينيه الحادتين عن النقطة السوداء التى قد تتحرك من بعيد فى الفضاء .

وعندما بلغ حافة الثلوج توقف وتساءل اذا كان الشيخ قد اتخذ هذا الطريق ، ثم راح يسير بمحاذاة الصخور فى خطوات أكثر اتساعا وقد بدا عليه القلق .

وأوشك النهار أن يولى واكتست الثلوج بذلك اللون الوردى وشمل المكان نسمة باردة . وصاح أولريخ مناديا بصوت عال وترددت الصيحة فى أنحاء المكان ورددها الصدى ولكنها لم تلبث أن تلاشت ولم يرد على ندائه أحد .

وطفق يمشى الى أن غابت الشمس وراء الافق وبدت العتمة تنتشر . وأحس الفتى بالخوف فجأة وبدا له ان الصمت المطبق والبرد والوحدة والموت الشتوى الخاص بهذه الجبال ، احس بكل ذلك يتسرب الى أوصاله وبأن شرايينه لن تلبث أن تتوقف وتتجمد أطرافه فأخذ يركض نحو مسكنه وهو يقول لنفسه ان الشيخ لابد قد عاد أثناء غيابه وانه لا شك قد سلك طريقا آخر ، وانه جالس الآن أمام النيران ومعه الوعل الذى اصطاده .

ولكنه لم يلبث ان رأى الفندق من بعيد ، ولم يكن هناك دخان يتصاعد منه فجرى بكل ما أوتى من قوة وفتح الباب واندفع سام اليه يحييه ، ولكن جاسبار هارى لم يكن قد عاد بعد .

واستولى عليه الخوف ودار حول نفسه كما لو كان يتوقع أن يجد صديقه مختبئا فى ركن ما . وأخيرا أشعل النار وأعد الحساء والامل لا يزال يراوده فى أن يعود الشيخ .

وكان يخرج من وقت لآخر ليرى ان لم يكن قد ظهر شىء فى الافق البعيد . وأقبل الليل ليل الجبال الباهت ، الشاحب ، الاصفر الذى يضيئه عند حافة الافق هلال أصفر يستعد لان يتوارى خلف القمم ، ثم يعود فيجلس ويدفىء قدمه وهو يفكر فى الحوادث المختلفة الوقوع ، فلعل جاسبار قد كسرت ساقه ، أو لعله وقع فى حفرة ما أو لعله ما زال ممددا فوق الثلج وقد تجمدت أوصاله من البرد ، ويصيح بكل قواه من وقت لآخر فى طلب النجاة .

ولكن أين ؟ وفى أى مكان من هذا الجبل الفسيح القاسى الذى تكمن الاخطار فى كل بقعة من بقاعه ، خاصة فى هذا الفصل من السنة .. يلزمه عشرة أو عشرون دليلا يمشون ثمانية أيام فى كل الانحاء للعثور على رجل فى مثل هذا المكان الفسيح .

ومع ذلك فقد صمم أولريخ كونسي أن يخرج مع سام اذا لم يعد جاسبار هارى حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل .

وأعد عدته لذلك ، فوضع زاد يومين فى كيس وأخذ خطافاته الفولاذية وربط حول وسطه حبلا طويلا متينا وتحقق من صلاحية عصاته المكسوة بالحديد والبلطة التى يستخدمها فى حفر السلالم فى الجليد ثم انتظر . وكانت النار تشتعل فى الموقد والكلب الضخم يغط فى نومه تحت أشعة اللهب والساعة تدق فى انتظام .

وراض نفسه على الانتظار مرهفا سمعه للأصوات البعيدة . وكان يرتجف كلما هبت الريح وتلاطمت بالجدران والسطح .

ودقت الساعة معلنة انتصاف الليل فارتعش بدنه واستولى عليه الخوف فجأة ، واذ رأى ذلك وضع قدرا من الماء على النار ليصنع لنفسه قهوة ساخنة قبل أن يشرع فى السير .

وعندما دقت الساعة الواحدة نهض وأيقظ سام وفتح الباب وسار فى طريقه الى صخور ويلد سترابل ، وقضى خمس ساعات وهو يصعد الصخور ، مستخدما خطافاته وبلطته ، متقدما باستمرار . وكان أحيانا يجر كلبه جرا ، عندما يتعذر على هذا الاخير الصعود . وكانت الساعة قد بلغت السادسة عندما بلغ القمم التى اعتاد الشيخ العجوز ارتيادها عند صيد الوعول .

وانتظر طلوع النهار .

وشحبت السماء فوق رأسه ، وفجأة سطح ضوء غريب شمل القمم الشاسعة التى تمتد الى مدى البصر أمامه ، وبدا له ان هذا الضوء قد خرج من الثلج نفسه لينتشر فى الفضاء وشيئا فشيئا اكتسبت القمم البعيدة ذلك اللون الوردى الذى يشبه لون البشرة ولم تلبث أن ظهرت الشمس الحمراء من خلف قمم الالب العالية .

وبدا أولريخ كونسي السير وراح يتقدم كما يفعل الصياد ، محنى الظهر ، يبحث عن الآثار ويخاطب كلبه قائلا :

ـ ابحث يا عزيزى سام .. ابحث .

وهبط الجبل وهو يدور بعينيه فى الهوة السحيقة وفى الحفر العميقة ، ويصيح أحيانا بكل ما أوتى من قوة ، وتضيع صيحاته فى الفضاء الصامت ، ثم يلصق أذنه بالارض ويرهف السمع ويخيل اليه انه يسـمع ردا على صيحاته فيجـرى صـائحا من جديد ثم لا يسمع شيئا وأخيرا يجلس وقد هده التعب واليأس .

وظل على هذه الحال حتى الظهر فتبلغ بما يسد رمقه وقدم الطعام لكلبه الذى لم يكن ليقل عنه تعبا ثم عاد يبحث من جديد .

وعندما أقبل المساء ، وهو لا يزال يسير ، وكان قد قطع نحو خمسين كيلو مترا فى الجبل ، ورأى نفسه بعيدا عن مسكنه وهو لا يكاد يستطيع الوقوف لفرط تعبه فحت لنفسه حفرة فى الثلج وتكوم فيها مع كلبه تحت غطاء سميك وقد احتضن كل منهما الآخر وبعث كل منهما الدفء فى جسد الآخر . ورغم ذلك فقد كادا أن يتجمدا حتى العظام .

ولم يجد النوم سـبيلا ، وخيل له أنه يرى أشباحا ورءوس مخيفة جعلته يرتجف .

وكان النهار قد أوشك على الظهور عندما نهض . وكانت ساقاه متجمدتين كعودين من الحديد ، وامتلأت روحه رعبا وقلقا ، وراح قلبه ، مع كل حركة ، يرقص بين ضلوعه لفرط انفعاله .

وخطر له فجأة انه سـوف يموت من البرد فى هذه العزلة الشاملة ، واستولى عليه الرعب لمجرد هذا الخاطر الذى ألهب قواه وجدد نشاطه .

وهبط نحو الفندق ، وهو يقع ما بين لحظة وأخـرى ثم نهض ، يتبعه سام الذى راح يتقدم وهو يعرج .

ولم يبلغا شوارنباخ الا حوالى الساعة الرابعة والنصف وكان البيت خاليا فأشعل الشاب النار وأكل ورقد وهو متبلد الذهن بحيث لم يلبث ان راح فى غيبوبة عميقة .

وظل نائما مدة طويلة ، طويلة جدا .. نوما عميقا ولكنه لم يلبث ان سمع صوتا يصيح ويناديه باسمه « أولريخ » بطريقة أزالت تبلده وجعلته ينهض مرة واحدة . هل كان يحلم ؟ أكانت صيحة من تلك

الصيحات الغريبة التى تتخلل أحلام ذوى النفوس القلقة ؟ .. كلا . انه لا زال يسمعها .. تلك الصيحة الحادة التى ثقبت أذنه وبقيت فى لحمه حتى أطراف أصابعه المرتجفة . لا شك أن أحدا قد ناداه وهتف باسمه .. أولريخ ! .. أى ان هناك أحدا بجوار البيت . ليس هناك أى شك فى ذلك . وأسرع ففتح الباب وهو يصيح بكل قواه .. أهذا أنت يا جاسبار .

ولم يجبه أحد .. لم يسمع صوتا ولا همسا ولا أنينا .. كان الوقت ليلا والثلج بلون الذبول .

وصفر الريح .. ريح الثلج الذى يحطم الصخور ولا يترك شيئا حيا فوق هذه المرتفعات المهجورة .. وراح يهب فى نسمات متدافقة قوية قاتلة ... أشد فتكا من ريح نار الصحراء ، وصاح أولريخ ينادى من جديد « جاسبار ! .. جاسبار .. جاسبار » .

ثم انتظر . ولكن بقى كل شىء صامتا فوق الجبل . وعندئذ استولى عليه الرعب وتغلغل منه فى العظام فأسرع الى داخل الفندق بوثبة واحدة وأغلق الباب ووضع الرتاج ثم وقع وهو ينتفض على مقعد واثقا أن زميله ناداه باسمه فى اللحظة التى جاد فيها بروحه .

كان واثقا من ذلك وثوقه من أنه يعيش وأنه يأكل خبزا . لقد ظل الشيخ جاسبار هارى يحتضر يومين وثلاث ليال فى مكان ما ، فى حفرة من هذه الحفرات التى تمتلىء بها صخور ويلد سترابل .. احتضر يومين وثلاث ليال وصعدت روحه الى بارئها الآن فقط وهو يفكر فى زميله . وما أن تحررت روحه حتى انطلقت نحو الفندق الذى يرقد أولريخ فيه ونادته بتلك القوة الخفية المروعة التى لارواح الموتى فى ملاحقة الاحياء .. صاحت روح جاسبار من غير صوت فى ذهن الراقد المتعب وألقت اليه بوداعها الاخير أو بلومها أو ربما بعتابها للرجل الذى لم يبحث عنه بما فيه الكفاية .

وأحس أولريخ بتلك الروح فى الخارج ، خلف الباب الذى أغلقه منذ لحظات . كانت تحوم كالطائر الليلى الذى تحتك أجنحته بالنافذة المضيئة . وريع الشاب وأوشك أن يصرخ من الرعب .

كان يود لو أن يهرب ولكنه لم يجرؤ على الخروج . لم يجرؤ ولن يجرؤ أبدا لان الشبح سيبقى بالخارج طوال اليوم وطوال الليل طالما ان جسد الشيخ العجوز لم يعثر له على اثر ويوارى التراب .

وأقبل النهار وأطمأن كونسى بعض الشىء عند عودة الشمس اللامعة فأعد طعامه وأعد الحساء لكلبه ثم بقى جالسا على مقعده لا يتحرك ، معذب القلب ، يفكر فى الشيخ الراقد فوق الجبل .

ولكن ما أن شمل الليل الجبل حتى هاجمته مخاوف جديدة ، وأخذ يسير فى المطبخ المظلم الذى لا يكاد نور الشمعة يبدد ظلامه ، وكان يسير من أول الغرفة الى آخرها بخطوات كبيرة يرهف السمع ويصغى اذا كانت صرخة الامس المخيفة لن تتردد وتخرق الصمت الشامل بالخارج . وأحس بوحدته وبؤسه ، كما لم يحس بالوحدة انسان من قبل . كان وحده فى هذه الصحراء الواسعة من الثلج .. وحده على ارتفاع ألفى متر عن بيوت البشر وعن الحياة التى تصطخب وتتحرك .. وحده فى تلك السماء المجمدة ، وأحس برغبة جنونية تدفعه الى أن ينجو بنفسه فى أى مكان وبأى طريقة كيفما تكون وأن يهبط الى قرية لويش ولو بأن يلقى بنفسه فى الهوة . ولكنه لم يجرؤ حتى على فتح الباب متيقنا من أن الآخر .. الميت .. سيقطع عليه الطريق لكى لا يبقى هو الآخر بمفرده فى الاعالى .

وفى نحو منتصف الليل تعب من السير وهده اليأس والخوف ففافله النوم فوق مقعد لأنه كان يخشى فراشه كما يخشى الانسان المكان المسكون بالأرواح .

وفجأة مزقت أذنيه صيحة الامس الحادة .. وكانت من الحدة بحيث أن أولريخ بسط ذراعيه ليدفع عنه الشبح فوقع على ظهره بكرسيه .

وصحا سام على الصوت وطفق ينبح كما هى عادة الكلاب المذعورة . وبلغ الباب وراح يتشمم عقبه فى قوة وقد وقف شعره وتصلب ذيله .

وكان كونسى قد نهض ومسك الكرسى من احدى قوائمه وصاح يقول فى ذعر « لا تدخل ... لا تدخل والا قتلتك » وأثار هذا

التهديد الكلب فراح ينبح فى قوة ضد العدو الخفى الذى يتحدى صوت سيده .

ولكنه لم يلبث ان هدأ شيئا فشيئا وعاد فتمدد بجوار الموقد . غير انه ظل قلقا رافع الرأس براق العينين يزمجر بين أسنانه .

أما أولريخ فقد استرد صوابه هو الآخر ولكنه كان لا يزال منهوك القوى من الرعب فذهب الى الصوان وأخذ منه زجاجة من الخمر عب منها بضعة كئوس فى لحظات قلائل كان من أثرها أن أبعدت عنه الخوف وردت اليه شجاعته وجعلت كأن حمى من النار تنساب بين ضلوعه .

ولم يذق طعاما طوال اليوم التالى مكتفيا بشرب الخمر ، وعاش بضعة أيام متتالية وهو سكران ، فاذا أفاق وعادت الى ذهنه ذكرى جاسبار هارى عاد الى الشراب يعب منه حتى يقع على الارض مخمورا ، ويبقى هكذا ، شبه ميت ، محطم الاضلاع ، يغط فى نومه وجبينه الى الارض ، فلا يكاد يهضم الخمر المحرقة حتى توقظه نفس الصرخة الحادة .. أولريخ ! .. كما لو كانت رصاصة تثقب ذهنه ، فيهب واقفا على الفور وهو يترنح ويبسط يديه حتى لا يقع وينادى سام لنجدته فيهرع الكلب الى الباب وينشب فيه أظافره ويعضه بأسنانه الطويلة البيضاء فى حين يزدرد الشاب الشراب وقد طوح برأسه الى الخلف ، فلا يلبث ان يتبلد ذهنه وتتلاشى ذكرياته وينسى ذعره .

ولم تمض ثلاثة أسابيع حتى كاد قد أتى على نصيبه كله من الخمر ، ولكن هذه الثمالة المستمرة كان من نتيجتها أن راحت تهرىء هلعه شيئا ما ليستيقظ فيما بعد أشد ما يكون ضراوة وشراسة اذا ما استحال عليه تهدئته . وتركزت فى رأسه فكرة ثابتة هيجها السكر وراحت تكبر وتكبر فى غير انقطاع فكان يسير فى مسكنه ويدور فيه كالحيوان الحبيس ويلصق أذنه بالباب ليسمع اذا كان الآخر ما زال موجودا ويتحداه من خلال الجدران .

وأخيرا ، وذات ليلة دفعه الجبن الى عمل جنونى فأسرع الى الباب وفتحه ليرى ذلك الذى يناديه ويرغمه على السكوت .

ولفحت رأسه نسمة من هواء بارد جمدت أطرافه فأغلق البـــاب وأوصده بالرتاج دون أن يفطن الى سام الذى اندفع الى الخارج ، ثم راح يلقى بالخشب فى النار وهو يرتجف وجلس أمامها ليتدفأ ، ولكنه لم يلبث أن أجفل ، فقد كان هنـــاك من يحك الجدار من الناحية الاخرى ويبكى .

وصاح مذعورا : اذهب .

ولكن رد عليه نحيب طويل موجع .

وعندئذ تبخرت البقية الباقية من عقله وصاح فى فزع :

ـ اذهب .

وأخذ يدور حول نفسه باحثا عن مكان يختبىء فيه ، بينما الآخر يدور فى الخارج ، حول البيت ، محتكا بالجدران . وأسرع أولريخ الى الصوان المملوء بالاوعية والمؤن فرفعه بقوة غريبة وجره حتى الباب فجعل منه متراسا ، ثم جمع كل ما تبقى من أثاث ومقاعد ومراتب فسد بها النافذة كما يفعل المرء اذا ما حاصره العدو .

ولكن ذلك الذى بالخـــارج أخذ يرسل أنينا طويلا كيبئا راح الشاب يرد عليه بأنين طويل مثله .

ومرت أيام وليال لم ينقطع كلاهما عن الانين والنحيب أحدهما يدور حول البيت فى غير انقطاع ويحك الجدران بأظافره بقوة كما لو كان يريد أن يهدمها ، والآخر فى الداخـل يتتبع حركاته محنى الظهـــر ملصقا أذنه بالحـــائط ويرد على أنينه بأنين آخر مروع .

وذات مساء لم يعد أولريخ يسمع شيئا فجلس وقد هده التعب ولم يلبث ان غرق فى النوم .

واستيقظ ورأسه فارغة من كل شىء .. ليس فيهـــا ذكرى ولا فكرة .. وكان جائعا فأكل .

***

وانتهى الشتاء ، وأصبح فى الامكان ارتقاء ممر جيمى واتخذت اسرة هوزر طريقها الى الفنـــدق . وبينما البغال تتقدم بهم فى الطـريق راحت الام والابنة تتبادلان الحـديث عن الرجلين اللذين

ستلتقيان بهما بعد قليل وأبدتا دهشتهما اذ لم يهبط أحدهما الى القرية ليستقى أنباءهم بعد أن أصبح الطريق مطروقا .

وبدا الفندق أمام أبصارهم أخيرا . وكانت الثلوج لا تزال تكسوه بطبقة خفيفة . وكان الباب والنافذة مغلقين ، ولكن بعض الدخان المتصاعد من سطح الفندق أدخل الاطمئنان الى قلب الاب هوزر ، وعندما بلغوا الفنــدق رأوا بقبة الباب هيكلَ حيوان ضخم مزقته النسور ونظروا اليه فاحصين ، وقالت الأم :

ــ هذا سام من غير شك !

وصاحت تنادى جاسبار فردت عليها من الداخل صرخة ... صرخة حادة كما لو كانت صادرة من حلق حيوان . وعاد الاب هوزر فنادى جاسبار بدوره وردت عليه صرخة أشبه بالصرخة الاولى .

وحينئذ حاول الرجال الثلاثة ، الاب وابناه فتح الباب فلقيوا مقاومة شديدة ، وجاءوا بكتلة خشبية ضخمة من الاصطبل ودفعوا بها الباب فى قوة فلم يلبث أن تحطم وسمعوا صوت شىء يقع ورأوا بالداخل خلف الصوان المنهار رجلا واقفا وقد تدلى شعر رأسه حتى كتفيه وطالت لحيته حتى بلغت صدره وبرقت عيناه وكست جسده أسمال بالية .

ولم يعرفوه ولكن لويز هوزر هتفت تقول :

ــ انه أولريخ يا أماه .

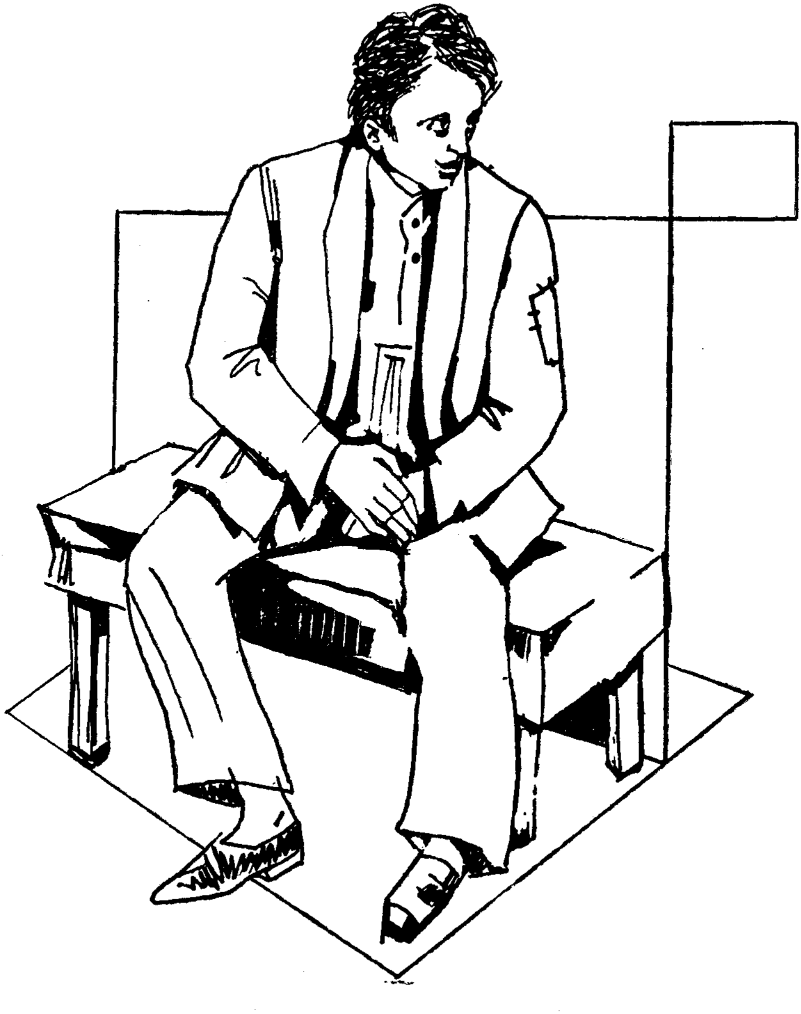
وتحققت الام من أنه أولريخ على الرغم من ان شعره كان قد ابيض وشاب .

وتركهم يقتربون منه ويلمسونه ولكنه لم يرد على أسئلتهم . ولما أعيتهم الحيل أخيرا ذهبوا الى قرية لويش حيث أكد لهم الاطباء أنه قد أصيب بالجنون .

ولم يعلم أحد أبدا ماذا كان مصير رفيقه .

وكادت لويزهوزر ان تموت فى ذلك الصيف من مرض الم بهــا نسبوه الى برد الجبل .

المتشرد



المتشرد

منذ أربعين يوما وهو يمشي بحثا عن عمل . غادر بلدته فيل أفاراى باقليم المانش لان العمل فيه لم يعد متوفرا . كانت النجارة مهنته ، وكان فى السابعة والعشرين من عمره ، طيب العنصر ، متين البنيان . وقد بقى شهرين عالة على أسرته . ومع أنه هو الابن الاكبر فلم يعد بمقدوره الا أن يعقد ساعديه القويين وان يظل سادرا فى البطالة العامة .. وأصبح الخبز نادرا فى البيت . وكانت الاختان تشتغلان باليومية ولكن أجرهما كان زهيدا فى حين انه هو ، جاك راندال ، الرجل القوى لا يعمل شيئا لانه لا يجد عملا ، ويقتات من عرق الآخرين .

ومضى عندئذ الى البلدية واستعلم وأجابه السكرتير ان فى مقدوره أن يجد عملا فى وسط المدينة .

وارتحل اذن بعد أن تزود بالاوراق الضرورية والشهادات ، وفى جيبه سبعة فرنكات ، وعلى كتفه ، فى منديل أزرق معلق فى طرف عصاه حذاء وبنطلون وقميص للغيار .

ومشى دون أن يستريح أياما وليال فى طرق لا آخر لها ، تحت لفح الشمس ، وتحت هطول المطر دون أن يصل البتة الى ذلك البلد الغامض حيث يجد العمال عملا .

والتزم فى البداية بفكرته ، وهى انه ما دام نجارا فلا يجب أن يشتغل الا فى النجارة ، ولكن ، فى جميع الورش التى تقدم اليها قيل له أنهم وفروا العديد من الرجال لقلة الطلبات ، ولم يجد مفرا فى آخر الامر وهو يجد نفسه خاوى الوفاض من القيام بكل الاعمال التى تصادفه فى طريقه .

وعلى هذا كان على التوالى فاعلا ينقل التراب وسائسا وحطابا وعتالا ، واقتلع الاشجار وحفر الآبار وخلط المونة وحزم عيدان الحطب ورعى الماعز فوق الجبل .. كل هذا نظير بضعة دراهم لانه لم يكن يحصل من وقت لآخر الا على عمل يومين أو ثلاثة ، عارضا نفسه بأجر زهيد لكى يتغلب على بخل أصحاب العمل والفلاحين .

ولكنه اليوم ، وهو لا يجد شيئا منذ أسبوع ، ولم يعد يملك دانقا ، وقد تناول آخر لقمة من الخبز بفضل بر النساء التى كان يتوسل أمام أبوابهن ، وهو يمر فى الطرقات الطويلة ، هبط الليل وهو متعب مكدود ، خاوى المعدة ، يعصف اليأس بكيانه ، ويمشى على العشب عارى القدمين لانه كان يدخر حذاءه الاخير ، اذ بلى حذاؤه الاول منذ وقت طويل . وكان اليوم يوم سبت فى آخر فصل الخريف ، وقد اكفهرت السماء وامتلأت صفحتها بالغيوم الثقيلة السريعة ، تحت عصف الرياح التى تصفر بين الاشجار . وكان يحس بأن المطر سوف يهطل بعد قليل . كان الريف مقفرا فى آخر هذا اليوم ، عشية يوم الاحد ، وكانت ترتفع فى الحقول ، من مكان لآخر ، أكوام من التبن المدروس . وبدت الاراضى عارية وقد قلبت استعدادا للبذر للسنة المقبلة .

كان راندال يشعر بالجوع ... جوع شديد من ذلك النوع الذى يرغم الذئاب على الهجوم على البشر . وكان مرهقا جدا فأوسع الخطى لكى تقل خطواته ، وثقلت رأسه ، وراح الدم يغلى فى صدغيه واحمرت عيناه ، وعلا الزبد شدقيه ، وشدد الضغط على عصاه وقد استبدت به الرغبة العارمة فى أن يضرب أول عابر يلتقى به قاصدا بيته لكى يأكل حتى الشبع .

كان ينظر الى جانبى الطريق وفى مخيلته صورة البطاطس المنزرعة وهو يعلل النفس بأن يجد بعضها فوق الارض المقلوبة فيجمع بعض الحطب ويشعل نارا فى الخندق ويأكل الخضار الطازج . شد ما يطيب له عندئذ أن يحتفظ بها بين يديه بعض

الوقت ريثما يحس بالدفء ، ولكن موسم الحصاد كان قد ولى منذ وقت طويل وكان لابد له أن يكتفى بثمرة البنجر يقتطفها من الخنادق كما فعل بالامس .

كان يتكلم منذ يومين وهو يوسع الخطى تحت الحاح أفكاره . لم يكن قد فكر حتى ذلك اليوم ، موجها كل ذهنه وكل حواسه الى عمله اليومى . ولكن التعب ، والبحث المستمر عن عمل لا يوجد والرفض والزجر ، ولياليه فوق العشب ، والصيام ، والازدراء الذى يحس به عند أهالى البلد وهم يقولون للمتشرد « لماذا لم تبق فى بلدك ؟ » والاسى الذى يمضه وهو يرى أنه لا يستطيع أن يستخدم يديه القويتين ، وارادته وذكرى أهله الذين تركهم فى البيت ولا يملكون هم الآخرون دانقا مثله ، كل هذا كان يملأه ، شيئا فشيئا ، بغضب بطىء يتكدس كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة، فتنقلت من بين شفتيه ، رغما عنه عبارات قصيرة هادرة .

وزمجر قائلا وهو يتمايل فوق الاحجار التى تتدحرج تحت قدميه العاريتين :

ــ تبا لهم .. تبا لهم .. هؤلاء الخنازير .. يتركون رجلا يموت من الجوع ! .. تبا لهم من خنازير .. ولا حتى صلدى واحد .. ولا حتى صلدى واحد .. يا للخنازير !

وأحنقه ظلم القدر ، ورمى الناس باللائمة .. كل الناس .. لان الطبيعة .. الام الكبيرة العمياء لا تنصف وتقسو وتغدر .

وراح يقول وهو يضغط على أسنانه « يا للخنازير ! » وينظر الى الدخان الرفيع الرمادى الذى يتصاعد من الاسطح فى هذه الساعة ... وقت العشاء . ودون أن يفكر فى الظلم البشرى الآخر الذى يدعوه الناس بالعنف والسرقة ود لو ان يدخل احدى هذه البيوت وان يصرع أهلها ويجلس الى المائدة مكانهم .

كان يقول : ليس لى الحق فى أن أعيش الآن ما داموا يتركوننى أموت من الجوع ، ومع ذلك فأنا لا أطلب الا أن أشتغل أيها الخنازير . وآلام أعضائه ، وألم معدته ، وألم قلبه ، كل هذا

تصاعد الى رأسه كثمالة مخيفة مولدة فى ذهنه هذه الفكرة البسيطة « ان لى الحق فى أن أعيش ما دمت أتنفس ، وما دام الهواء للجميع ، وعلى هذا فليس لهم الحق فى أن يتركونى أموت » .

وراح المطر يهطل ، وكان غزيرا وقارسا وتوقف وتمتم : تبا لهم ! أمامى شهر آخر أقضيه فى الطريق لكى أعود الى البيت . والواقع انه كان يعود الآن الى بلدته التى ولد فيها وشب ، فقد أدرك أنه قد يجد عملا فى البلدة التى يعرفه أهلها أكثر مما قد يجده فى بلد يرتاب فيه جميع أهلها .

وما دامت النجارة عاطلة فسوف يغدو فاعلا أو عتالا أو حمالا أو أى شىء آخر ، وحتى اذا هو لم يكسب غير عشرين صلديا فى اليوم فانها لكفيلة بأن تدرأ عنه غائلة الجوع .

وربط حول عنقه ما تبقى من منديله الازرق لكى يمنع الماء البارد من التسرب الى ظهره وصدره ولكنه لم يلبث ان أحس بأن قطرات المطر قد اخترقت القماش الرفيع لملابسه ، وألقى حوله نظرة قلقة ، نظرة رجل هالك لم يعد يدرى أين يخفى جسده أو يريح رأسه ، رجل لا ملاذ له ولا ملجأ فى الدنيا .

وأقبل الليل ناشرا ظلاله على الحقول . ورأى فى مزرعة بعيدة نقطة سوداء فوق العشب ... بقرة ... وتخطى الخندق الذى أمامه ومضى نحوها دون أن يدرى ماذا سيفعل .

وعندما دنا منها رفعت رأسها الضخمة اليه ، وقال لنفسه : لو ان معى اناء لاستطعت أن أشرب قليلا من اللبن

ونظر الى البقرة ، ونظرت البقرة اليه . وفجأة ركلها بقدمه فى قوة وهو يقول : قفى .

وانتصبت الدابة فى بطء وقد تدلى ضرعها تحتها . وعندئذ استلقى الرجل على ظهره بين قائمتى الحيوان وراح يشرب ويشرب، وهو يضغط بيديه الضخمتين الضرع المتضخم الدافىء والذى تنبعث منه رائحة الاسطبل ... وشرب بقدر ما بقى فى النبع الحى من لبن .

ولكن المطر البارد كان يهطل بكثرة . وكان السهل كله عاريا ، لم يجد فيه أي مأوى . وكان مقرورا ورأى نورا يلمع بين الاشجار منبعثا من أحد البيوت .

وعادت البقرة ، فاستلقت فى بطء ، وجلس بجوارها وهو يربت بيده على رأسها شاكرا لها لانه تغذى . وأنفاس البقرة القوية انبعثت من منخريها الكبيرين كامبوبتين من الدخان فى هواء الليل ، ومرت فوق وجه العامل الذى راح يقول : انت لا تشعرين بالبرد فى جوفك .

وكان يمر بيديه على صدر الدابة ، تحت قوائمها لكى يجد شيئا من الحرارة . وخطرت له عندئذ فكرة وهى ان يقضى الليل الى جوار هذا الصـــدر الدافىء . وعلى هذا بحث عن أصلح مكان لذلك وألقى جبينه على الضرع الضخم الذى رواه منذ لحظات ، وكان مكدودا ومتعبا فغلبه النوم على الفور .

ولكنه استيقظ مرارا كثيرة وهو يشعر بالبرد يهرى ظهره أو صدره طبقا اوضعه بجوار الحيوان . وكان يستدير عنـدئذ لـكى يدفىء ويجفف المكان الذى بقى من جسمه معرضا لهواء الليل ، ثم يعود فينام نومه المرهق المضنى .

واستيقظ على صيحة ديك . كان الفجر يوشك على البزوغ . وانقطع المطر وصفت السماء .

وكانت البقرة راقدة ومنخراها الى الارض فانحنى وقبل خطمها الدافىء ثم قال :

ــ الوداع يا حلوة .. الى الملتقى .. انت دابة جميلة .. الوداع .

ولبس حذاءه ومضى .

ومشى الى الامام ساعتين ، متبعا دائما نفس الاتجاه ، ثم حل به ارهاق شديد بحيث اضطر ان يجلس فوق العشب .

وكان النهار قد طلع وراحت أجراس الكنيسة تدق ، وخرج الناس من رجال ونساء وأطفال وهم يرتدون ثياب يوم الاحد ،

فى طريقهم الى القرية المجاورة ، بعضهم راجلا والبعض الآخر راكبا للاحتفال بيوم الاحد عند الاهل أو الاصدقاء .

وظهر فلاح ضخم يدفع أمامه عشرين خروفا يثغون ويترددون ، فى حين كان كلب سريع يعيدهم الى القطيع .

ونهض راندال وحياه ثم قال : أما عندك عمل لرجل يموت من الجوع ؟

أجابه الآخر وهو يرميه بنظرة تقدح شررا :

ـ لا عمل لدى للناس الذين التقى بهم فى الطريق .

وعاد النجار فجلس فى الخندق .

وانتظر طويلا وهو يرى الرجال يمرون أمامه ، يبحث بينهم عن وجه طيب رحيم لكى يعيد رجاءه .

واختار بورجوازيا يرتدى سترة طويلة وتتدلى على صدره سلسلة ذهبية وخاطبه قائلا :

ـ اننى أبحث عن عمل منذ شهرين ولا أجد شيئا ولم تعد معى أية نقود .

أجابه البورجوازى : كان يجب أن تقرأ الاعلان المعلق فى مدخل البلد : « التسول ممنوع فى هذه المدينة » . أعلم اننى العمدة واذا لم تبادر بالانصراف فسأصدر الامر بالقاء القبض عليك .

قال راندال وقد بدا الغضب يتغلب عليه : افعل اذا أردت فان ذلك لأفضل بكثير لاننى لن أموت من الجوع عندئذ .

وعاد فجلس فى الخندق .

وفعلا ، وبعد نحو ربع ساعة ظهر شرطيان راحا يتقدمان فى بطء وفى عرض الطريق ، يبرقان بقبعتيهما الملمعتين وأسلحتهما وازرارهما النحاسية الصفراء كما لو لاخافة الاشرار وحملهم على الفرار بعيدا ... بعيدا جدا .

وأدرك النجار أنهما قادمان من أجله هو ولكنه لم يتحرك وقد استبدت به فجأة رغبة جامحة فى أن يتحداهما وأن يحملهما على القبض عليه وأن ينتقم منهما فيما بعد .

واقتربا دون أن يبدو عليهما أنهمـــا رأياه ، وهمـــا يمشيان بخطواتهما العسكرية الثقيلة المتزنة . وفجأة ، وفيما هما يمران تظاهرا بأنهما اكتشفا وجوده فتوقفا وراحا يحـدقان فيه بعينين تنطق بالتهديد والوعيد .

وتقدم الجاويش فى بطء وسأله : ماذا تفعل هنا ؟

أجاب الرجل فى هدوء : اننى أستريح .

ــ ومن أين تأتى ؟

ــ اذا كان ولابد ان أذكر لك البلاد التى مررت بها فسوف يقتضى منى ذلك ساعة بأكملها .

ــ وأين تمضى ؟

ــ الى فيل أفاراى

ــ وأين هى ؟

ــ فى المانش .

ــ أهى بلدك ؟

ــ نعم .

ــ ولماذا ارتحلت عنها ؟

ــ لكى أبحث عن عمل .

تحول الجاويش الى زميله ، وقال ، بغضبة الرجل الذى تحنقه نفس الحيلة :

ــ انهم جميعا يقولون ذلك .. ولكن هذا لن يجوز على

ثم استطرد : هل معك أوراق ؟

ــ نعم .

ــ ارنى اياها .

اخرج راندال أوراقه وشهاداته ، وهى شـــــهادات فقيرة ، مستهلكة وقذرة ، وبسطها للجاويش !

وراح هذا الاخير يتهجاها فى مشقة ، واذ رأى انهـــا أوراق صحيحة مستوفاه أعادها وهيئته تدلّ على استيائه لانه لقى من هو أمكر منه .

ـ هل معك نقود ؟
ـ كلا .
ـ لا شيء .
ـ لا شيء .
ـ لا شيء اطلاقا ؟
ـ لا شيء اطلاقا .
ـ مم تعيش اذن ؟
ـ مما يمنحوننى اياه .
ـ انت تتسول اذن ؟
أجاب راندال فى حزم : نعم ، عندما أستطيع .
ولكن الشرطى قال : اننى ألقى القبض عليك اذن متلبسا بتهمة التشرد والتسول ؟ وعليك أن تتبعنى .
نهض النجار قائلا : كما تريد .
ووقف بين الشرطيين حتى قبل أن يصدرا اليه أمرهما وقال اقبضا على اذن ، فاننى بذلك أجد سقفا فوق رأسى عندما يهطل المطر .
ومضوا نحو القرية التى ظهرت بيوتها خلال الاشجار ، على بعد ربع فرسخ .
وكانت ساعة الصلاة قد ازفت عندما اجتازوا القرية ، وكان المكان غاصا بالناس وقد وقفوا على جانبى الطريق لكى يروا ذلك المجرم الذى تعقبه جمع من الغلمان المنفعلى وراح الفلاحون والفلاحات ينظرون اليه وهو يمشى بين الشرطيين وفى عيونهم غضب ورغبة فى رجمه بالحجارة وانتزاع جلده بأظافرهم وسحقه تحت أقدامهم . وراحوا يتساءلون هل سرق أو قتل . وقال الجزار ، وهو جندى سابق : انه هارب من الجندية ، أما بائع السجائر فقال : انه يعتقد انه هو الذى نقده قطعة مزيفة من فئة الخمسين سنتيما صباح اليوم . فى حين أكد صاحب محل الخردوات انه هو دون مراء قاتل الارملة ماليه الذى يبحث عنه البوليس منذ ستة شهور .

وفى قاعة دار البلدية حيث سيق راندال كان العمدة جالسا أمام مكتبه وبجواره ناظر المدرسة .

وصاح العمدة بمجرد أن وقعت عيناه عليه : آه .. أهذا أنت ؟ .. قلت لك اننى سأصدر أمرى بالقبض عليك . حسنا أيها الجاويش ، ما الخبر ؟

أجابه الجاويش : متشرد لا مأوى له ولا ملجأ يا سيدى العمدة ، وخاوى الوفاض كما يعترف ، وجدناه يتسول ومعه أوراق وشهادات مستوفاة .

قال العمدة : ارنى هذه الاوراق .

وتناولها وقرأها ثم أعادها وقال : فتشوه .

وفتش الجاويش راندال ، ولم يجد معه شيئا .

وبدت الحيرة على ملامح العمدة . وقال يخاطب العامل :

ـ ماذا كنت تفعل صباح اليوم فى الطريق ؟

ـ كنت أبحث عن عمل .

ـ عن عمل ؟ .. فى الطريق ؟

ـ وكيف تريد أن أجد عملا اذا اختبأت فى الغابة ؟

ونظر كل منهما الى الآخر فى حقد كحيوانين ينتمان الى جنسين مختلفين وعاد القاضى يقول :

ـ سأطلق سراحك ولا أريد أن أراك مرة ثانية .

أجابه النجار : بل أفضل أن تحبسنى فقد سئمت الجرى فى الطرقات .

صاح العمدة فى صوت حازم : صه .

ثم قال يخاطب الشرطيين : رافقا هذا الرجل حتى مائتى متر خارج حدود القرية ثم اتركاه يواصل طريقه .

قال العامل : اعطنى ما أتبلغ به على الاقل .

احتد الآخر وقال : لم يكن ينقصنا الا هذا ... هذه وقاحة !

بيد ان راندال عاد يقول فى قوة : اذا تركتنى أموت من الجوع مرة أخرى فانك بذلك ترغمنى على أن أقوم بحماقة .. تبا لكم أيها الاغنياء !

وكان العمدة قـد نهض واقفـا وعاد يقول : اذهبا به قبل أن اغضب .

أمسك الشرطيان بالنجـــار من ذراعيه وجراه جرا . وانصاع راندال لهما وعبر الغـابة ولم يلبث ان وجـد نفســه فى الطريق العام . ورافقه الرجلان حتى مائتى متر من العلامة الكيلو مترية ثم قال الجاويش :

ـ والآن ، امض أمامك قدما واحرص على ألا نراك فى هذا البلد ، والا فالويل لك .

ومشى راندال دون أن ينطق ، ومن غير أن يعرف الى أين يمضى . ومشى أمامه ربع ساعة أو عشرين دقيقة وهو متبلد الحس بحيث لم يعد يفكر فى شىء .

وفجأة ، وفيما هو يمر أمام بيت صغير نافـذته مواربة شم رائحة طعام جعلته يقف أمام البيت .

وأثاره الجوع على الفور . جوع قاهر جبار أوشك أن يدفع به الى جدران البيت وزمجر يقـــول فى صوت مرتفع : رحماك ربى ؟ لابد من أن يقدموا لى الطعام هذه المرة . وراح يضرب الباب بعصاه فى قوة .. ولم يجبه أحد ، واشتدت ضرباته وهو يصيح : يا أهل البيت ... افتحوا .

ولم يتحرك شىء . واقترب من النافذة عندئذ ودفعها بيده ، واندفع منها هواء المطبخ المحبوس ورائحة الحساء الدافىء واللحم المسلوق والكرنب وملأت خياشيمه ، وبوثبة واحدة ألقى نفسه داخل البيت . ورأى على المائدة أطباقا معدة لشخصين . ولا ريب ان أهل البيت خرجوا لحضور الصلاة وتركا عشاءهما فوق الموقد ... اللحم المسلوق وحساء الخضر الدسم .

ورأى فوق الموقد رغيفا كبيرا من الخبز الطازج وبجواره زجاجتان من النبيذ .

هجم راندال فى بادىء الامر على رغيف الخبز وقطعه الى نصفين فى عنف كأنه يخنق رجلا ثم راح يقضمه فى شراهة فى لقمــات كبيرة كان يبتلعها بسرعة ، ولكن رائحة اللحم لم تلبث ان شدته

فرفع الغطاء عن الحلة وغمس فيها شوكة وأخرج قطعة كبيرة من اللحم مربوطة بخيط رفيع ثم أخذ بعض الكرنب والجزر والبصل حتى ملأ طبقه ووضعه فوق المائدة ، وجلس أمامه وقطع اللحم الى أربع قطع وتعشى كأنه في بيته . وعندما التهم اللحم كله والخضر أحس بأنه ظمآن وأخذ الزجاجتين من فوق الموقد .

وما أن رأى السائل فى كأسه حتى عرف نوع النبيذ ولم يحفل بقوته وأدرك أنه سيلهب جوفه بالنار وطاب له ذلك لان الشراب سيبعث اليه بالدفء بعد البرد القارس الذى أصابه .

وطاب له الشراب فعلا وصب لنفسه كأسا أخرى ملأها حتى حافتها وجرعها على مرتين . وأحس على الفور بالفرحة والبهجة تسريان فى جسده كما لو ان سعادة غامرة قد تسربت فى جوفه .

واستأنف أكله فى سرعة أقل وهو يمضع الاكل فى بطء ويغمس الخبز فى الحساء . وكانت بشرته كلها قد أصبحت ملتهبة ، وعلى جبينه حيث راح الدم ينبض بقوة .

وفجأة ارتفع رنين جرس من بعيد فأدرك ان القوم فرغوا من الصلاة ، وجعلته الغريزة ، وليس الخوف ، غريزة الحرص التى ترشد المرء وتهديه وتبصره بكل الاخطار ، جعلته يضع الجزء الباقى من الخبز فى جيبه ، وزجاجة النبيذ الثانية فى جيبه الآخر ثم مضى الى النافذة فى خطوات متلصصة ونظر الى الطريق .

كان لا يزال مقفرا ، لم يظهر به أحد بعد ، فوثب من فوق النافذة وراح يمشى ، ولكن بدلا من أن يتبع الطريق العام هرب خلال الحقول ، نحو غابة رآها أمامه .

وأحس عندئذ بالنشاط وبأنه مسرور مما فعل وانه خفيف الحركة الى درجة انه راح يمشى وثبا .

وما ان رأى نفسه بين الاشجار حتى أخرج الزجاجة الثانية وراح يشرب جرعات كبيرة وهو فى طريقه . وعندئذ اختلطت أفكاره وتعكرت عيناه وتخاذلت ساقاه .

وراح يغنى وهو يمشى فوق العشب الكثيف الندى ، وذلك البساط الرطب الندى تحت قدميه زوده برغبات جنونية فى أن يتشقلب كالاطفال .

وفعلا اخذ أهبته وتشقلب ثم نهض وراح يتقدم من جديد وهو لا يزال يغنى .

وفجأة رأى انه فى أول طريق ضيق متعرج فى آخرة فتـاة ناضجة .. خادمة تعود الى القرية وفى يديها دلوان من اللبن .

وراح يتفرس فيها بعينين متالقتين كمـا يتفرس الوحش فى فريسته .

ورأته ، ونظرت اليه طويلا ثم أخذت تضحك وقالت :

ـ أأنت الذى تغنى .

ولم يرد ، وانما وثب نحوها من فوق التلة التى كان يقف عليها على الرغم من علوها بنحو ستة أقدام على الاقل .

وقالت وهى تراه واقفا امامها فجأة :

ـ آه .. انك أخفتنى .

ولكنه لم يسمعها . كان ثملا ، وكان مجنونا ، يثيره غضب آخر أشد قوة من الجوع ، فقد أهاجته الخمر ، وأثاره جنون الرجل حين يفتقر الى كل شيء تقريبا ، منذ شهرين ثم يثمل فجأة وهو ما يزال فى عنفوان شبابه تلهبه كل الشهوات التى تبذرها الطبيعة فى جسد الذكور القوى .

وارتدت الفتاة أمامه وقد أفزعها وجهه وعيناه وفمه المفتوح ويداه المبسوطتان أمامه .

وأمسكها من كتفيها ، وبدون أن ينطق بكلمة طرحها أرضا .

وتركت الفتاة الدلوين يقعان ويتدحرجان فى صوت كبير وانساب منهما اللبن ثم صرخت ، ولكنها اذا أدركت انه لا جدوى من الصراخ فى هذه الصحراء واذ رأت أنه لا يريد أن يقتلها استسلمت دون مشقة كبيرة .

وعندما نهضت أرقتها فكرة داويها الفارغين وملأتها غضبا ، فرفعت قبعاتها وهجمت عليه لكى تحطم رأسه ان لم ينقدها ثمن اللبن .

ولكنه أساء الظن بهذا الهجوم المفاجيء ، وكان صوابه قد عاد

اليه شيئا ما وفزع مما فعل فجرى بكل سرعته فى حين راحت هى ترجمه بالحجارة ، وأصابه بعضها فى ظهره

وجرى طويلا ، طويلا . ثم أحس بالتعب كما لم يحس به أبدا . وتخاذلت ساقاه بحيث لم يستطيعا حمله . وتبلبلت كل أفكاره وأمحت كل ذكرى ولم يعد بمقدوره أن يفكر فى أى شىء .

وجلس عند جذع شجرة .

وبعد خمس دقائق كان قد غاب فى نوم عميق .

وأيقظته صدمة كبيرة ففتح عينيه ورأى الشرطيين منحنيين فوقه ، وكانا ممسكين به يوثقان يديه .

وقال أحدهما ساخرا : كنت واثقا اننى سألقى القبض عليك من جديد .

نهض راندال دون أن ينطق بكلمة . وراح الرجلان يهزانه وهما مستعدان لمعاملته بمنتهى الشدة اذا ما أتى بأية حركة لانه أصبح فريستهما الآن ، فقد أصبح صيدا للسجن وقد أمسكه صيادو المجرمين ولن يطلقوا سراحه بعد ابدا .

وقال الجاويش : تقدم .

وساروا فى طريقهم . وكان الليل يوشك على الهبوط باسطا فوق الارض غسق خريف ثقيل وكئيب .

وبلغوا البلدة بعد نصف ساعة .

كانت كل الابواب مفتوحة لانهم عرفوا الاحداث .. والفلاحون والفلاحات يغلون غضبا كما لو انه سرق كل واحد منهم . واغتصب كل واحدة منهن . وأراد الجميع رؤية ذلك الشقى عند عودته لكى يرجموه بالحجارة .

وكانت ثورة وهياجا بدأتا فى أول بيت وانتهت حتى دار البلدية حيث كان العمدة جالسا ينتظر وقد أحس بأنه ينتقم لنفسه من هذا المتشرد .

وما أن وقعت عيناه عليه حتى صاح من بعيد :

ـ أهلا بك يا صاحبى .

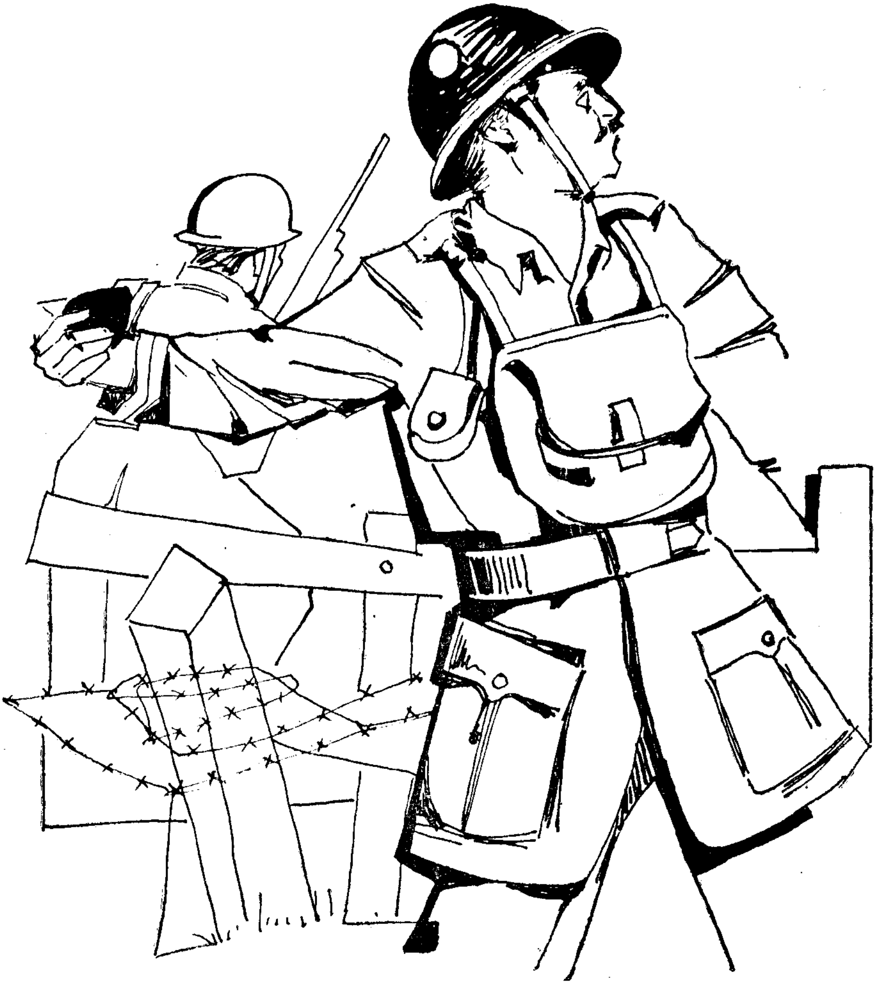
ثم فرك يديه مسرورا ، وهو نادرا ما يحس بهذا الاحساس ، وعاد يقول :

ــ قلت لك ذلك .. قلت لك بمجرد أن رأيتك على الطريق .. اننى قلت لك ..

ثم أردف يقول فى مرح كبير :

ــ آه .. أيها الوغد .. أيها الوغد القذر .. لك أن تطمئن ، فلن تغادر السجن قبل عشرين عاما .

مغامرة والتر شنافس



مغامرة والتر شنافس

منذ أن دخل والتر شنافس فرنسا مع جيش الغزاة وهو يعد نفسه أشقى الرجال .

كان بدينا ، ثقيل الخطى ، تؤلمه قدماه المفرطحتان السمينتان أشد الالم . وكان مسالما ودودعا يكره الحرب ولا يحتمل رؤية الدماء . كان والدا لأربعة اطفال يعبدهم وزوجا لامرأة شابة شقراء ، أصبح يفتقد كل ليلة حنانها وقبلاتها ورعايتها له . وكان من عادته أن ينام حتى وقت متأخر ويأوى الى فراشه فى وقت مبكر ويأكل على مهل أجود الاطعمة وأشهاها ، ويختلف الى الحانات لشرب البيرة . ثم انه كان يعتقد أن كل ما هو جميل فى الوجود يختفى باختفاء الحياة ، وكان يحقد كل الحقد على المدافع والبنادق والمسدسات والاسلحة البيضاء ، ولا سيما الحراب ، ولا عجب فهو يشعر بأنه غير جدير بالدفاع عن بطنه الضخمة ضد هذا السلاح المخيف . وعندما كان يفترش الارض اذا ما أقبل الليل ، متدثرا بمعطفه بجوار زملائه الذين يرتفع غطيطهم كان يسرح بفكره نحو أهله الذين تركهم خلفه والاخطار التى يحف بها طريقه . لو أنه قتل فماذا يكون من أمر صغاره ؟ من يطعمهم ؟ ومن يربيهم ؟ فهم ليسوا من الاغنياء على الرغم من الديون التى استدانها قبل رحيله ليترك لهم قليلا من المال . وكان كلما فكر فى ذلك بكى أحر بكاء .

فى بداية المعارك أحس بضعف فى ساقيه ، ولو أنه ترك الامر لنفسه لسقط لولا انه يعرف ان الجيش كله خلفه وانه سيمر فوق جسده . وراح صفير الرصاص يقف شعر رأسه .

وهكذا كان يعيش فريسة الخوف والقلق .

وكانت فرقته تتقدم نحو نورمانديا ، وارسل ذات يوم مع نفر

من زملائه كانت مهمتهم أن يستكشفوا جزءا من البلد ثم يعودون بعد ذلك . وكان كل شيء يبدو هادئا ولا شيء مطلقا يدل على أنهم سيلقون أية مقاومة .

كانوا يتقدمون فى هدوء وأمان فى جوف واد صغير تقطعه أخاديد عميقة عندما أوقفهم فجأة وابل من الرصاص أصاب نحو عشرين رجلا منهم . وفاجأتهم فرقة من الفرنسيين خرجت عليهم من قلب غابة صغيرة واندفعت نحوهم وهم شاهرين حرابهم فى مقدمة بنادقهم .

وقف والتر شنافس فى بادىء الامر جامدا لا يتحرك وقد أذهلته المفاجأة بحيث لم يخطر له أن يهرب . ثم تملكته رغبة جنونية فى الفرار ، ولكنه لم يلبث أن تذكر أنه يجرى كالسلحفاة اذا قيس بالفرنسيين النحاف الذين يقبلون مسرعين كقطيع من الماعز . ورأى على بعد ست خطوات منه خندقا مملوءا بالاعشاب وتغطيه الاوراق الجافة فألقى بنفسه فيه من غير أن يفكر فى عمقه كما يلقى الانسان بنفسه من فوق جسر الى النهر .

ومر كالسهم خلال طبقة كثيفة من الاعشاب المتشابكة مزقت وجهه ويديه وسقط فى عنف جالسا فوق فراش من الاحجار .

ورفع عينيه على الفور فرأى السماء من خلال الثقب الذى أحدثه سقوطه . وقد كان فى الامكان أن تفضحه هذه الفتحة فزحف على أربع فى حذر حتى آخر الخندق تحت سطح من الاغصان المتعانقة بعيدا من مكان المعركة ، وهناك جلس من جديد وهو يرتعد كالارنب المذعور .

ومر به وقت غير طويل وهو يسمع صوت الرصاص والصياح والانين ثم خفت كل شيء ولم يلبث ان عاد الصمت والسكون فشملا المكان .

وفجأة تحرك شيء بجواره فسرت فى أوصاله رعدة شديدة . ولم يكن ذلك غير عصفور صغير حط رحاله فوق الاغصان وأخذ يرفرف بجناحيه . وظل والتر شنافس يرتجف فى شدة ساعة كاملة .

واقبل الليل فملأ الخندق بظلامه . وراح الجندى يفكر . ماذا يفعل ؟ وماذا يكون من أمره ؟ هل يلحق بفرقته ؟ .. ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟ .. وأين هى فرقته الآن ؟ .. لابد له فى سبيل ذلك أن يعانى الاهوال والمخاطر التى عاناها منذ بداية الحرب ، وهو لن يجد من نفسه الشجاعة على احتمال ذلك .

ولكن ماذا يصنع ؟ لم يكن يستطيع البقاء فى هذا الخندق والاختفاء فيه حتى تضع الحرب أوزارها طبعا . ولو انه لم يكن هناك ضرورة الاكل لما أفزعه هذا الاحتمال قط . ولكن كان لابد من أن يأكل وأن يأكل كل يوم .

ولكن ها هو الآن بمفرده ، بثوبه العسكرى فى أرض الاعداء ، بعيدا عن هؤلاء الذين فى مقدورهم الزود عنه .. وسرت فى بدنه رعشة .

وفكر فجأة فقال : « لو أننى غدوت أسيرا » . وخفق قلبه وقد انتابته رغبة ملحة عنيفة فى أن يقع أسيرا بين أيدى الفرنسيين ، فان وقوعه فى الاسر معناه أن يصبح آمنا مطمئنا ، يأكل ما يشتهى ويظل بعيدا عن الرصاص والحراب ، لا يخشى أى خطر بين جدران السجن ... أسيرا ... ما أحلى هذا الحلم !

وصح منه العزم على الفور وقال : سوف أسلم نفسى وأصبح أسيرا .

ونهض وقد استقر رأيه على تنفيذ هذا المشروع الحلو الجميل على الفور من غير ان ينتظر دقيقة واحدة ، ولكنه لم يلبث ان تسمر مكانه فجأة وقد استولت عليه الافكار السوداء وتملكه خوف جديد .

فأين يذهب ولمن يسلم نفسه ؟ .. وكيف .. وفى أية جهة .

وتلاحقت أمام خاطره صورة مروعة .. صور الموت والهلاك .

فان الاخطار سوف تستقبله اذا ما غامر بنفسه بمفرده ، وخوذته المدببة فوق رأسه . ماذا يكون من أمره لو التقى به بعض الفلاحين ؟ انهم اذا ما رأوا بروسيا وحيدا فسوف يقتلونه كالكلب ويمزقونه بفئوسهم ومعاولهم ويجعلون منه عجينة كما يفعل المقهور المدحور اذا ما التقى بغريم له لا حول له ولا قوة .

وقد يلتقي به بعض القناصة ، وهؤلاء الآخرون لا يعرفون الرحمة أو الشفقة ، وهم كذلك لا يعدلون ، وسوف يقتلونه لا لشيء الا للتسلية واللهو . ورأى نفسه بعين الوهم واقفا لصق جدار وقد سددت اليه اثنتى عشرة فوهة من فوهات البنادق .

بل ماذا يكون أمره لو أنه التقى بالجيش الفرنسي نفسه ؟ .. قد يحسبه رجال الطليعة كشافا خرج وحده للاستكشاف فيطلقون عليه النار ، وخيل له انه يسمع رصاص الجنود المختبئين خلف الاعشاب . ورأى نفسه يهوى وسط الحقول وقد اخترقه الرصاص من كل ناحية من أنحاء جسده .

وجلس وقد طواه اليأس ، وبدا موقفه شديد الحرج لا مخرج له ..

وكان الليل قد جن وادلهم .. الليل الصامت الحالك الاهاب . وجلس لا يريم وان كان قد راح يرتجف كلما سمع أقل حركة من تلك الحركات التى تقع فى الظلمات . وجاء أرنب يتلصص فأحدث صوتا كاد ينخلع له قلب والتر شنافس ازاءه ، وأوشك أن يندفع هاربا لا يلوى على شيء ، وكادت صيحات البوم تأتى على البقية الباقية منه بعد أن ملأته رعبا وخوفا ، وراح يحملق بعينيه الواسعتين محاولا اختراق الظلمات ، وكان يخيل له فى كل لحظة ان هناك من يسير بجواره .

وبعد ساعات طويلة لا نهاية لها وعذاب لا يحتمل رأى من خلال سقيفة الاغصان رقعة السماء تضيء وتصفو . وعندئذ داخله ارتياح كبير . وتراخت أطرافه وقد أحس بالامن واطمأن قلبه وأسلم عينيه للرقاد .

وعندما استيقظ كانت الشمس قد أوشكت أن تتوسط كبد السماء فأدرك أن الوقت يوشك أن يكون ظهرا ، ولم يكن هناك أى صوت يعكر هدوء الحقول وأحس والتر شنافس بجوع شديد الوطأة .

وتثاءب وقد سال اللعاب من بين شفتيه عندما فكر فى السجق الجيد الذى يقدمونه للجنود ، وفى أمعائه التى تؤلمه .

ونهض ، وتقدم بضع خطوات واحس بأن ساقيه ضعيفتين فجلس بفكر . ومرت به دقيقتان أو ثلاث استعرض فيها موقفه ، ودرسه دراسة وافية وهو يعدل فى كل لحظة لما يكون قد اتخذه من قرار وقد استبد به القهر .

وتبدت له أخيرا فكرة منطقية وعملية وهى ان يرتب مرور قروى وحيد أعزل لا يحمل شيئا من أدوات العمل فيهرع اليه ويسلم نفسه .

واذا انتهى الى هذا القرار حسر خوذته المدببة عن رأسه حتى لا تفضحه ثم أخرج رأسه من الحفرة فى منتهى الحذر ، ولم يكن هناك أى امرىء ، ولكنه رأى فى نهاية الاشجار قصرا كبيرا شاهق الابراج .

وانتظر فى مكمنه حتى اقبل المساء وهو يتلوى من الالم لا يرى غير الغربان ولا يسمع غير أنين معدته .

وهبط الليل مرة أخرى .

وتمدد فى أعماق الحفرة ونام مضطربا محموما تتخلله الاحلام المزعجة وتؤلمه بطنه الخاوية . وطلع الفجر عليه من جديد فوقف يرقب ما حواليه . ولكن المكان كان مقفرا كاليوم السابق واستولى على والتر شنافس خوف جديد .. خوف من أن يموت جوعا ، ورأى نفسه بين الخيال طريحا على ظهره فى أغوار حفرته وهو مطبق العينين وقد دبت حوله الحشرات والحيوانات ، حيوانات من كل نوع راحت تأكله من كل ناحية دفعة واحدة متسللة تحت ثيابه لتقرض لحمه البارد ، وغراب كبير أخذ ينقر عينيه بمنقاره الدقيق .

وتملكه الجنون عندئذ ، وخيل له انه سيغمى عليه من الضعف ، وانه لن يقوى على المسير . وهم بأن يجرى صوب القرية وقد استقر منه العزم على أن يخاطر بكل شىء ولكنه لم يلبث أن أبصر ثلاثة من الفلاحين يذهبون الى حقولهم وفى أيديهم فئوسهم ومعاولهم فتراجع الى مخبأه .

ولكن ما أن أقبل الظلام وشمل المكان من جديد حتى تسلل من

مخبأة وراح يتقدم نحو القصر البعيد ، مقوس الظهر وقلبه يركض بين ضلوعه من الخوف والذعر مؤثرا اياه على القرية التى بدت له شديدة الخطر كوكر ملىء بالحيوانات المفترسة .

وكانت نوافذ الدور الارضى تسطع بالانوار ، واحداها مفتوحة على مصراعيها تنفذ منها الى الخارج رائحة لحم مشوى دخلت خياشيمه حتى أعماق بطنه فجعلته يلهث ويتلوى وملأته جراة تفوق جراة اليائس .

وفجأة ، ومن غير تفكير ظهر بخوذته فى اطار النافذة .

كان ثمانية من الخدم يأكلون حول مائدة كبيرة . ولمحته خادم فجأة فحدقت فيه مذهولة وقد عقد الرعب لسانها ، ووقع القدح من يدها . وتحولت أنظار الجميع الى حيث تنظر فرأوا العدو .

رحماك يا الله ! .. البروسيون يهاجمون القصر !

وانطلقت فى بادىء الامر صيحة واحدة انبعثت من أفواه الاشخاص الثمانية مرة واحدة . صيحة تنطق بالذعر والفزع ، ثم تدافع الجميع راكضين نحو الباب ، ووقعت المقاعد ومر الرجال فوق أجساد النساء . وفى لمح البصر خلت الغرفة منهم جميعا ، تاركين المائدة وما عليها من ألوان الطعام أمام والتر شنافس المشدوه الواقف عند النافذة .

وبعد تردد يسير تخطى النافذة وتقدم نحو المائدة ، وكان الجوع قد جعله ينتفض كالمحموم ، ولكن الخوف سمره وجمد حركاته ، وأرهف أذنيه . كان البيت كله كأنه يتأوه فالابواب تغلق والاقدام تركض مسرعة فى كل مكان . وأصاخ البروسى السمع وقد استولى عليه الجزع واستمع الى كل هذه الاصوات الغريبة ثم لم يلبث أن سمع أصواتا مكتومة كأن أجسادا تقع فوق الارض الرطبة فى الخارج .. أجساد بشرية تقفز من أول طابق .

ثم سكتت الاصوات وهمدت الحركة وأصبح القصر صامتا صمت القبور .

وجلس والتر شنافس أمام طبق لم يكن قد مسه أحد وراح يأكل .

وكان يملأ فمه بقطع الخبز الكبيرة كما لو كان يخشى أن يقطع أحد عليه خلوته قبل أن يأكل ويشبع . وراح يدفع الاكل بيديه الاثنتين الى فمه المفتوح كالبئر . وهبطت كتل الطعام الى جوفه القطعة اثر القطعة قبل أن يفرغ من مضغها كما يجب . وكان يتوقف فى بعض الاحيان كما لو كان سيهلك من فرط ما يدفع الى بطنــه من طعام . فكان يتناول عندئذ دن النبيذ ويملأ فمه ويدفع الطعام داخل مضخة عنقه دفعا .

وأفرغ كل الاطباق وزجاجات النبيذ . ولم يلبث ان أثمله الشراب والاكل وأخذه ذهول واحمر لونه ودارت راسه وعلق الزبد بفمه . وفك أزرار سترته حتى يستطيع التنفس . وثقلت عيناه فألقى جبينه الثقيل بين يديه المعقودتين فوق المائدة وغاب عن الوجود فى هدوء .

كان الهلال يضيء بنوره الخافت الأفق ، فوق أشجار الحديقة وقد أوشك الفجر أن يبزغ .

وتسللت ظلال فى الممرات العديدة الصامتة . وكان ضوء القمر ينير فى بعض الاحيان طرف خوذة مدببة .

وكان الهدوء يشمل القصر الاسود الكبير والنور لا يسطع فى غير غرفتين فى الطابق الارضى .

وفجأة ارتفع صــــوت كالرعد يقول : الى الأمام ... اهجمــوا يا أولادى .

وعندئذ ، وفى وقت واحد اقتحمت الابواب والنوافذ واندفع منها عدد كبير من الرجال فحطموا كل شيء وغزوا البيت . وفى لحظة واحدة كان خمسون رجلا قد هجموا على المطبخ حيث يرقد والتر شنافس فى أمن ودعه ، وصوبوا الى كرشه الضخم خمسين بندقية ورفعوه من مكانه ودحرجوه فوق الارض وشدوا وثاقه .

وكان المسكين يلهث مشدوها وهو لا يزال غير واع لما يدور حوله ، لا يدرك سببا لهجومهم عليه وضربهم اياه بهذه الصورة .

وفجأة تقدم ضابط ضخم تلمع فوق صدره نياشين كثيرة . فوضع قدمه فوق كرش والتر شنافس وصاح : أنت اسيرى فسلم نفسك .

ولم يفهم والتر شنافس غير هذه الكلمة « أسير » فتأوه قائلا : نعم ، نعم .

وتعاونوا على حمله فأجلسوه فوق مقعد وراحوا يفحصونه فى فضول شديد وهم يلهثون فى شدة ، وجلست الغالبية منهم وهم لا يملكون أنفسهم لفرط انفعالهم وتعبهم .

أما والتر شنافس فكان يبتسم .. يبتسم مغتبطا وقد اصبح أسيرا فى النهاية .

ودخل ضابط آخر وصاح : « سيدى القائد .. لقد هرب الاعداء . ويبدو أن كثيرا منهم قد أصيبوا بجراح .. وأصبحنا الآن سادة القصر » .

مسح القائد جبينه قائلا : النصر لنا !

وأخرج من جيبه مفكرة صغيرة دون فيها هذه الكلمات :

« بعد قتال عنيف اضطر البروسيون الى الانسحاب ، حاملين معهم موتاهم وجرحاهم وهم يقدرون بخمسين رجلا . ووقع بين أيدينا عدد كبير منهم » .

وعاد الضابط يقول : ما هى التدابير التى يجب اتخاذها يا سيدى ؟

أجاب القائد : سوف ننسحب فى هدوء حتى نتجنب هجوما مفاجئا بقوات تفوقنا عددا وعدة .

وأصدر أمره بالانسحاب .

وأحدق الجميع بوالتر شنافس الموثق القياد ، وصوبوا اليه بنادقهم من كل ناحية .

وأرسل البعض للاستكشاف ، وتقدم الباقون فى حذر وهم يتوقفون من وقت لآخر ، ووصلوا الى مركز بوليس القرية مع طلوع النهار .

وكان الاهالى ينتظرون فى جزع ، وعندما وقعت أعينهم على خوذة الاسير ارتفعت الاصوات المدوية . ورفعت النساء أيديهم وبكت العجائز ، ورمى شيخ الاسير بعكازه فشج رأس واحد من حراسه وصاح القائد : احرصوا على سلامة الاسير .

وبلغوا المحافظة اخيرا ففتح السجن والقى والتر شنافس فيه بعد أن فكوا وثاقه . وأحاط بالسجن مائتا رجل مدججين بالسلاح لحراسته .

وعندئذ ، وعلى الرغم من عسر الهضم الذى كان يعانيه منذ وقت طويل استولى على والتر شنافس فرح عظيم فراح يرقص فى جذل محركا ذراعيه وساقيه وهو يطلق صيحات جنونية حتى سقط أخيرا منهوك القوى بجوار الحائط .

لقد أصبح أسيرا ، ونجا من الموت !

وهكذا استعيد قصر شامبنييه من أيدى العدو بعد ست ساعات من احتلاله فحسب .

أما القائد راتييه ، تاجر الصوف الذى أحرز هذا النصر الرائع فقد منح وساما .

((تمت))

الفهرس

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية : ٨٢/٢٦٢١

الترقيم الدولى : ٨ - ١٣ - ٧٣٥٣ - ٩٧٧ ISBN

٢٥ قرشا

هذه الرواية

.. كان الضوء يملأ الغرفة كما لو ان الوقت كان نهارا ، ومع ذلك فلم ار صورتى فى المرآة ، فقد كانت خاوية تماما من أى انعكاس غير انعكاس النور ، ولم تكن صورتى فيها ، كنت واقفا امامها ، ارى الزجاج الشفاف من أعلاه الى أسفله ، وكنت ارى هذا بعينين مذعورتين ولم أجرؤ على التقدم ، بل لم أعد أجرؤ على الاتيان بأية حركة وأنا احس مع ذلك بأنه موجود معى ، وانه سيفلت منى مرة أخرى .. هو الذى التهم جسده الشفاف صورتى ..

من قصة .. المجنون وهى القصة الاولى فى هذا الكتاب وعشر قصص أخرى من روائع جى دى موباسان .